علماء
التاريخ والجغرافيا

بسم الله الرحمن الرحيم

علماء التاريخ والجغرافيا

د. محمد غياث المكتبي
عبد الرزاق كيلو

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل الرقمي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

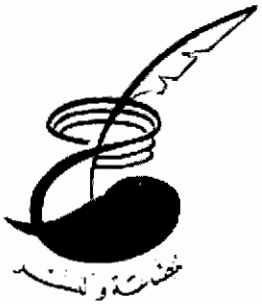

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email:almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

قطْبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ
إمامُ المُؤرخِينَ
(274 ـ 346هـ)

أعِزَّائي وأَحبَّائي:

قطبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ، هيرودتُسُ العَربِ كَمَّا سَمَّاهُ وأَطلقَ عَليهِ عُلماءُ الغَربِ في العَصرِ الحديثِ بعد أَن قرَؤوا كُتُبَهُ، واطَّلَعوا على إِنْتاجِهِ العِلميِّ الغَزيرِ.

قطبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ، عَالِمُ التَّارِيخِ والجُغرافيا والفَلَكِ، والرَّحالةُ الَّتي لَمْ تَعرفْ حياتُهُ الهُدوءَ والاستقرار أَو الإِقامَةَ في مَكانٍ مُعينٍ للتَّمتُّعِ بِملاذِّ العَيشِ ونُشدانِ الحياةِ الأُسريَّةِ الهادِئَةِ والمُسْتَقرَّةِ، وإِنَّما كانَ في عملٍ دَؤوبٍ، وسَعي مُتواصِلٍ مِنْ أَجْلِ جَمعِ المادَّةِ العلميَّةِ لِتَسفيرها وجَعلِها في مُتَناوَلِ النَّاسِ، والأَجيالِ التي سَتأتي مِنْ بَعدِهِ، وتَنْتَعِشُ فكرياً وثقافياً بِما يسطرُهُ ويَكتُبُه مِنْ وَحي عَطائِهِ، ومِنْ معينِ معارِفِهِ وثقافَتِهِ المتنوعَةِ الَّتي تُمثِّلُ مَعارِفَ عَصرِهِ وعلومَهُ الَّتي كانَ يَجتَهِدُ في طَلبها العُلماءُ.

كانَ المَسعوديُّ مُثَقَّفَ عَصرِهِ، تماماً كما كانَ هيرودتُسُ اليوَّنانيُّ عِنْدَ أَقرانِهِ الإِغريقِ والرَّومانِ في عَصرِهِ، إِذْ كلاهما حَرَصَ على عَكس الحَالَةِ العلميَّة والثَّقافيَّة والوجدانيَّةِ

والعمرانيَّة لِبَني قَومِهِ، وكلاهما عَكَفَ على القِراءَة والبَحثِ والتَّنقيب عَنِ المعرفَةِ عَلَى بِساطِ الحلِّ والتَّرحالِ والسَّفرِ، ومُكاشَفَةِ الحَقائقِ عَلَى جناحَي الصَّبرِ عَلَى المشاقِّ، وتحمُّل الصِّعابِ وهُما يَضربانِ في طُولِ البِلادِ وعَرضِها، ليَخرُجا مِنْ مِحرابِ هَذا السَّفرِ الطويلِ بِإنتاجٍ علميٍّ مُتَشابِهٍ في مَضمونِهِ وغايَتِهِ، وإِنْ كَانَ عالِمُنا المَسْعوديُّ أَكثرَ واقِعِيَّةً ومَنطقيَّةً وعقلانيَّةً في نِتاجِهِ العِلميِّ من هِيرودوتسَ، وَلِكنْ للإِنْصافِ التَّاريخيِّ كانَ هيرودوتسُ أَسْبَقَ العُلماءِ والمُؤَرخِينَ في هذا المِضْمارِ.

فقَدْ كانَ عالِمَ الإِنسانيَّة الأَوحَدِ في عَصرِهِ، وغَزَا المعرفَةَ في مَشارقِ الأَرض ومغارِبِها، وهُوَ يحرِّرُ قيودَها مِنْ بُعْدِ الشّقَةِ، وشَساعَةِ السَّفرِ، ويَغْتَالُ حُدودَها مِن اختلافِ الطَّبائِعِ والأَمْزِجَةِ والمُعتقداتِ بَيْنَ الشُّعوبِ والأُمَمِ، مُختصِراً المسافاتِ الزَّمانيَّةَ والمَكانيَّةَ بِما يَسطرُهُ ويَخطُّهُ عَلَى صُحفِ النَّهارِ، ورقاعِ اللَّيلِ، مِنْ مَعلوماتٍ جَليلَةٍ، وحقائِقَ مُفيدةٍ، يَصْعُبُ على المَرءِ اسْتجلاؤُها والوصولُ إليها ولو قَضَى عُمرَهُ كُلَّهُ مِنَ المَهدِ إلى اللَّحدِ.

سَبَقَ المَسْعودِيُّ عَصْرَهُ وزَمانَهُ بِما بَذَلَهُ مِنْ جُهدٍ مَتينٍ لِيَصِلَ إِلى عِلمٍ مكينٍ عَن الإِنْسانِ والطَّبيعةِ والأَشياء والحيوانِ، ووَصَفَ الحياةَ بالحياةِ، والعِلمَ بِالعِلمِ، والتَّاريخَ بالتَّاريخِ، فكانَ بحقٍّ أُسطورَةَ التَّاريخِ العربي والإسلامي، كما كان هيرودوتس أسطورة التاريخ اليُونانيِّ والرُّومانِيِّ مِنْ قَبْل.

فَمَنْ هُوَ قِطبُ الدِّينِ المَسعوديُّ، الّذي لَقَّبَهُ عُلماءُ الغَربِ ومُفكروهُ بِهيرودوتْسَ العَربِ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبو الحُسَينِ (وقِيلَ أَبو الحَسَنِ) عَليُّ بْنُ الحُسينِ المُعتزلي الشَّافِعي، وحَسَبَ ما رَوى ابْنُ حَزمٍ عَنْهُ، أَنَّهُ وُلِدَ في بَغدادَ عامَ (274) هِجريَّةً، لِأُسرَةٍ كوفيَّةٍ تَعودُ في نَسَبِها إِلى الصَّحابيِّ الجليلِ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، ولِهَذا يُلقَّبُ بِالمَسْعوديِّ. نَشَأَ قِطبُ الدِّينِ المَسعوديُّ في مَدينةِ بَغدادَ وتَرعرَعَ فيها، ومنذُ صِغَرِهِ كانَ مَيَّالاً إِلى سَماعِ الحكاياتِ والقِصصِ عَنِ الشُّعوب الماضِيَةِ، ويُحبُّ الاسْتِفسارَ عَنِ البُلدان والأَصْقاعِ، ولِهَذا اهْتَمَّ في شَبابِهِ بِقراءَةِ الكُتُبِ التَّاريخيَّةِ ودراسَتِها دِراسَةً عميقةً ودقيقَةً، كما التَقَى بكوكَبَةٍ مِنَ العُلماءِ والمُؤَرخين المعَروفين ودرسَ عليهم، كالإمامِ الطَّبَريِّ، وابْنِ دُريد، كمَا رُويَ عَنْهُ أَنَّهُ التَقَى في بَغدادَ مَع العَالِمِ الكَبيرِ أَبي بَكرٍ الرَّازِيِّ، ودَارَتْ بَينَهُما مُساجلاتٌ ومُناظراتٌ علميَّةٌ في بَعضِ المَسائِلِ العِلميَّةِ والتَّاريخيَّةِ، ثُمَّ تَمَكَّنَ قِطبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ مِنْ تَحصيلِ ثَقَافةٍ مَعرفيَّةٍ عميقةٍ وشاسعةٍ جَعلتْهُ مُلمّاً بِعلومِ عَصرِهِ، ومُتَفوِّقاً في عُلومِ التَّاريخِ والفَلكِ والجُغرافيا.

اهْتَمَّ المَسعودِيُّ بِطَلبِ الرِّحلَةِ والسَّعي في البُلدان والأَصقاعِ، فَلَمْ يَلبَثْ في مَدينَتِهِ ومَسْقَطِ رَأسِهِ بَغدادَ بَعْدَ نُضوجِهِ الفِكريِّ إِلَّا قليلاً، وهَذا ما يُعلِّلُ لَنا تَغَيُّبَهُ عَنِ الحضورِ في مُصنَّفاتِ وتَراجِمِ العُلماءِ والمُؤَرخينَ الّذينَ كانوا في عَصرِهِ في مَدينةِ بَغدادَ مِمَّن اشْتَغَلَ مِنْهُمْ بِتَدوينِ أَخبارِ ذَلِكَ العَصرِ، فَتَقَلُّبُهُ المُسْتَمرُّ في البُلدانِ، وغُربَتُهُ الدَّائِمةُ في الأَصْقاعِ غَيباهُ عَنْ أَعْيُنِهِمْ.

زارَ قِطْبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ الكَثيرَ مِنَ البُلدانِ الآسيويَّةِ والإفريقيَّةِ، ورُبَّما بَعْضَ أَقطار القَارَّةِ الأُوروبيَّةِ في سياقِ أَسفارِهِ المُستمرَّةِ الّتي امتَدَّتْ بينَ السِّنين (303 ـ 336) هجريَّةً.

فَقَدْ جَابَ بِلادَ فارِس، والشَّام وفلسطينَ وبِلادَ الهِنْدِ والسِّندِ، وطافَ في أَرجاءِ أَرمينيَّةَ وضَواحي بلادِ القاب وبَحر الصِّين ومَدَغَشقرَ والسَّاحِلِ الشَّرقي لإِفْريقيةَ وبَعضِ بِلادِ الرُّوم، ولَكنْ بَقيَ ردْحاً طويلاً مِنْ حياتِهِ يَتَردَّدُ بين مصر وبِلادِ الشَّام، حَتَّى استقرَّ مقامُهُ أخيراً في فسطاطِ مِصْرَ، فبقيَ مُقيماً فيها حَتَّى وفاتِهِ سَنَةَ (346) هجريَّةً.

❁ ❁ ❁

وَصَفَ المَسْعوديُّ مُشاهَداتِهِ المُختلفَةَ في البُلدانِ التي زارَها وطَافَ بِها بِأسلوبٍ عِلميٍّ رَصينٍ ومُنمَّقٍ وبِتَراكيبَ لُغويَّةٍ مُترابِطَةٍ جَزلَةٍ، فَوَصَفَ البِحارَ الّتي زارَها وأَنواءها وسواحِلَها ومُدنها، والأَنْهارَ الَّتي مَرَّ بِها أَو عبرَها ومنابِعَها ومصابَّاتها، وجرَيانها في البُلدانِ والوديانِ، وكذلِكَ الجبالَ والأشجارَ والحَيواناتِ، والمُدنَ والقُرى الّتي زارَها وشاهَدَها واصِفاً سُكَّانَها وعاداتِ أهلِها، وتاريخَ نُشوئِها وموقعَها وحُدودها وأعيادَها ومواسِمَها وصِفاتِ المنَاخِ فيها، وكُلَّ ما يتعلَّقُ بِحياتِها الاقتصاديةِ والاجتماعيَّةِ والسِّياسيَّةِ والدِّينيَّةِ. ولا يَخلو وصْفُه مِنَ المقارَناتِ والتَّحليلاتِ، وتَحديدِ المَسافاتِ بِالأَميالِ والفَراسِخِ والأَيَّامِ.

كَمَّا تحدَّثَ في مُصنَّفاتِهِ عَنْ تاريخِ بِدءِ الخليقَةِ وبدايَةِ حياةِ الإنسانِ على ظَهرِ هَذِهِ الأرضِ، ثُمَّ العُصورِ والحِقَبِ الّتي تَلَتْ ذَلِكَ حَتَّى عَصرِهِ الّذي عَاشَ فيه، وكيفَ ارتَقَتْ وتطورَتْ حياة الإنسانِ والكائناتِ وكيفَ ازدَهَتْ مَعارفُ البَشريَّةِ وثَقافاتُها وحَضاراتُها، بَلْ إِنَّهُ أَشارَ إِلى أَبْعَدِ مِنْ ذَلِك فوصَفَ التَّبدلاتِ البيولوجيَّةَ الّتي تَطرأُ على بَعضِ الكائناتِ

الحيَّةِ إذا تَمَّ نَقلُها مِنْ مَكانِها إلى مكانٍ آخرَ. فمثلاً أَشارَ إلى الانحرافِ الوراثيِّ في الحِمضيَّاتِ، أَثناءَ عمليَّةِ النَّقلِ لَهَا مِنْ بِلادِ السِّندِ إلى بِلادِ الهِنْدِ، ولِهَذا اعتبَرهُ البَعضُ رَائِدَ نَظريَّةِ الانْحرافِ الوراثيِّ في تاريخِ الإِنْسانيَّةِ، فَهوَ أَوَّلُ مَنْ أَشارَ إلى ذلِكَ، بَل اعْتَبرهُ بَعضُ الباحثينَ الأُوربيين بَعدَ اطلاعِهِ على نِتاجِهِ العِلميِّ بِأنَّه ـ وإِنْ كُنَّا نُخالِفُهُ الرَّأيَ في صِحَّة هَذِهِ النَّظريَّةِ ـ واضِعُ بُذورِ نِظريَّةِ الارتقْاءِ والتَّطورِ الّتي نَادَى بِها دارونُ في العَصرِ الحَديثِ.

❋ ❋ ❋

أَفادَ قِطْبُ الدِّين المَسعوديُّ الفِكْرَ الإِنْسانيَّ، والتَّاريخ البَشَريَّ كثيراً بِما وَضَعَهُ مِنْ مُؤَلفَاتٍ ومُصَنَّفاتٍ، وبِمَا قَدَّمَهُ مِنْ مَعلوماتٍ وحقائقَ عَن البُلدانِ الّتي زارَها ووَصَفَها.

وَلِكنَّه لَمْ يَلْقَ بِما تَرجَمَهُ عَنْهُ وعَنْ حياتِهِ المُترَجمونَ والمُؤَرخونَ الحَفَاوَة الّتي تُناسِبُ قَدْرَهُ وجهدَهُ العلمِيَّ، وعطاءَهُ البَاهِرَ الّذي تضيقُ عَنْ وَصْفِهِ الصَّفحاتُ الطِّوالُ، فَمثلاً نَجدُ «صلاحَ الدِّينِ الصَّفديَّ» في كتابِهِ «الوَافي بِالوَفيات» لا يَذْكُرُ «المَسْعوديَّ» عِندما يُتَرجِمُ عَنْ حياتِهِ إلا صَفْحةً ونِصْفَ الصَّفحةِ فَقَطْ. وكَذَلِكَ فَعلَ ابْنُ شَاكِرِ الكتبيُّ في «فَواتِ الوَفيات»، وياقوتُ الحمويُّ في «مُعجمِ الأُدباء»، أَما ابنُ خلكانَ في «وفياتِ الأَعيانِ» فَلا نَجِدُ في كتابِهِ هذا أَيَّ ترجَمةٍ لحياةِ «المَسْعوديِّ» عِلماً بأَنَّهُ قَد اعتمدَ عَلى أَقوالِهِ وآرائِهِ اعْتِماداً كَثيراً في كِتابِهِ المَذكورِ.

لِهَذا قَالَ أَحَدُ المستشرقينَ الَّذينَ قَرؤوا المَسْعوديَّ: «لَمْ يَقْرأ العَربُ والأُوربيون المَسْعوديَّ فيما كَتَبَهُ حَتَّى الآنَ».

أَمَّا المُسْتَشرقُ «فُونَ كِريمَر» فَقَالَ عَن المسعودي: «هيرودوتسُ العَربِ»، ومَعَنى ذَلِكَ أَنَّهُ «أَبو التَّارِيخِ العربي»، كما اعتُبِرَ المُؤَرخُ اليونانيُّ القديمُ هيرودوتسُ أَبو التَّاريخِ القديمِ.

أَما العَلَّامَةُ «ابْنُ خلدونَ» فَقَدْ لَقَّبَ المَسعوديَّ بِـ «إِمامِ التَّاريخِ» مُعتبراً أَنَّهُ كان يُحقِّقُ في التَّاريخِ عَلى الأسفارِ القَديمةِ في وَصْفِ بِدايَةِ الخَليقَةِ ونَشْأَةِ الكَونِ.

فَالمَسْعوديُّ كَانَ يُسجِّلُ ويُدوِّنُ مِنَ الأَحداث والوقَائِعِ ما يراهُ هاماً، ويَبعدُ عَن الخيالِ فيما يَصِفُهُ مِنْ مُشاهَداتِهِ الكثيرةِ خِلالَ رِحلاتِهِ إِلى البلادِ الّتي زارَها، ولِهذا كانَتْ أَخبارُهُ تنبضُ بِالحياة وتَتَّصِفُ بِالواقِعيَّة، وقَدْ كانَ المُؤَرخونَ قبلَهُ يعْتَمدونَ على الرِّوايات المَنْقولَةِ بِقَولِهِمْ: حَدَّثنا فُلانٌ عَنْ فُلانٍ.

أَمَّا المَسْعُوديُّ فَقَدْ أَبْدَعَ مَنْهجاً جَديداً في كتابَةِ التَّاريخِ مَيَّزَه عَنْ غَيرِهِ مِنَ المُؤَرخينَ الَّذين كانوا يعتمدون عَلَى الأَخبارِ كيفَما كانَتْ.

❁ ❁ ❁

لَقَدْ كانَ المَسْعوديُّ عَلَى قَدْرٍ عظيمٍ مِنَ الأَخلاقِ الحَسَنةِ الّتي أَثَّرتْ في كِتاباتِهِ، وأَبْعَدَتْهُ كثيراً عن العقَدِ النَّفسيَّةِ والأَهواءِ فيما يَكتُبُه أَو يرويهِ مِنْ أَخبارٍ، إِذْ لا تَخلو أَخبارُ المُؤَرِّخِ مِنْ هَفْواتِ أَهوائِهِ ورَغباتِهِ فيما يَأْمَلُ ويُحبُّ ويَكرَهُ ويَعْتَقِدُ.

أَمَّا المسعوديُّ فَكانَ حياديّاً فيما يَكتبُ ويَصِفُ، أو فيما يرويه مِنْ أَخبارٍ، ولَمْ يَكُنْ مُتعصِّباً لأُمَّةٍ دونَ أُخْرى، أو لِمَذهبٍ دُونَ آخَرَ، وإِنَّما كَانَ ينقُلُ الخَبَر نقلاً أَميناً دَقيقاً مُتَوخّياً الحقيقةَ قَبْلَ أَيِّ شيءٍ آخَرَ.

وأَجْمَلُ ما كَانَ يتحلَّى بِهِ المَسْعوديُّ مِنْ خُلقٍ فَاضلٍ هُوَ التَّواضُعُ والحَنينُ إِلى الوَطنِ الّذي خَرَجَ فيْهُ مُرتَحلاً إِلى آفاقِ الدُّنيا والبلدان، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ أَصْبَح شَخصيَّةً عالميَّةً، فَلَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى وَطَنَهُ ومَسْقَط رأْسِهِ، فَنُلاحِظُ فيهِ رَجلاً وَطنياً صادقاً ومُخلصاً، فَقَالَ في كتابِهِ «مُروجِ الذَّهبِ»: «إِنَّ مِنْ عَلامَةِ وَفاءِ المَرءِ، ودَوامِ عَهدِهِ، حَنِينَهُ إِلى إِخْوانِهِ، وشَوقَهُ إِلى أَوطانِهِ، وبُكاءَهُ عَلَى ما قَضَى مِنْ زمانِهِ».

صنَّفَ وأَلَّفَ المسعوديُّ كُتُباً كثيرةً في التَّاريخِ والجُغرافيا، وذَكَرَ لَهُ المُؤَرخونَ أَكثرَ مِنْ أَربعينَ كتاباً. وأَهَمُّ مؤلفاتِهِ:

1 ـ مُروجُ الذَّهبِ وَمعادِنُ الجَوهَرِ: وهو مُخْتَصَرٌ لِكتابٍ لَهُ مَفقودٍ بِاسمِ «أَخبارِ الزَّمانِ» وهُوَ مَوْسوعَةٌ علميَّةٌ جُغرافيَّةٌ تاريخيَّةٌ، وقَدْ تُرجِمَ هَذا الكِتابُ إِلَى اللُّغاتِ الفَرنسيَّةِ والإِنْكليزيَّةِ والفَارسيَّةِ والهِنديَّةِ.

2 ـ التَّنبيهُ والأَشرافُ: وهُوَ في مواضيعَ كثيرةٍ تَحدَّثَ فيه عَنِ الأَفلاكِ وهيئَتِها، والنُّجومِ والعناصِرِ وتَركيبِها وَأَقسامِ الأَزمنَةِ، وفصولِ السَّنَةِ وَمنازِلِها، والرِّياحِ ومَهابِّها، والأَرضِ وشَكلِها، ومَعرفَةِ السِّنين القَمريَّةِ والشَّمسيَّةِ، وبَعضِ المواضيعِ التَّاريخيَّةِ، وقَدْ تُرجِمَ هَذا الكِتابُ إِلى عِدَّةِ لُغاتٍ عالميَّةٍ مُؤَخَّراً.

3 ـ سِرُّ الحَياةِ: وهُوَ كِتابٌ علميٌّ يَتحدَّثُ فيهِ عَنْ أَسرارِ الطَّبيعةِ والحَواسِّ الموجودَةِ في الإِنسانِ والمبادِئِ والتَّركيبِ.

ومِنْ خلالِ هَذِه الكُتبِ الثَّلاثَةِ اعْتَبَرَ البَاحثونَ والنُّقادُ المَسعودِيَّ مُمَثِّلاً لِثقافَةِ ومعارِف عَصرِهِ، فَلَقدْ كَانَ يَتنَاوَلُ في كِتاباتِهِ جُملةَ مواضيع تَتطابَقُ اليومَ مَعَ ما يُعرفُ بتاريخِ الحضاراتِ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ ما هِيَ نِقاطُ التَّشابُهِ بين هيرودتُس والمَسْعوديِّ؟

2 ـ كيفَ سبقَ المَسْعوديُّ عَصرَهُ وزمَانَهُ؟

3 ـ أين وُلِدَ المَسْعوديُّ، ولِماذا لُقِّبَ بِالمَسْعوديِّ؟

4 ـ ما هِيَ البُلْدانُ التِّي زارَها المَسْعوديُّ؟

5 ـ كيفَ وصَفَ المَسْعوديُّ مُشاهداتِهِ في البُلدانِ الّتي زارَها؟

6 ـ لِماذا اعْتُبِرَ المَسْعوديُّ رائِداً لِنَظَرِيَّةِ الانحرافِ الوراثيِّ؟

7 ـ لِماذا كانَتْ أَخبارُ المسعوديِّ تَنْبضُ بالحياة وتتَّصِف بِالواقعيَّةِ؟

8 ـ ما أَجْمَلُ ما كانَ يَتَحلَّى بِهِ المَسْعوديُّ؟

الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ
سَيخُ الخطَّاطينَ
(586 ـ 666هـ)

أعزَّائي وأَحبَّائي:

كمالُ الدِّينِ ابنُ العَديمِ، أَو الصَّاحبُ ابْنُ العديمِ، شَيخُ الخَطَّاطينَ، وأَمينُ المُؤَرخينَ، قاضي القُضاةِ، المعروفُ بِالسِّيادة والرِّياسَةِ، وصاحبُ الملوكِ والأُمراءِ والسَّلاطينِ، واحِدٌ مِنَ العُلَماءِ الأَنْجاب المَشهودِ لَهُمْ بِغَزارِة العلمِ وسِعَةِ المَعرفَةِ، والاطِّلاعِ الوافِرِ على علومِ ومَعارفِ عَصرِهِ.

عُرِفَ الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ بِجودَةِ الخَطِّ، وحُسْنِ الكتابَةِ، وبِإتقانِهِ كتابَةَ الخَطِّ العَربيِّ بمختلَفِ صنوفِهِ وأَنواعِهِ، وبشكلٍ خَاصٍّ خَطِّ النَّسْخِ والرِّقاعِ، حَتَّى لَقَّبهُ بَعضُ المُؤَرخين بِشَيخ الخَطَّاطينَ.

وفضلاً عَنْ ذَلِكَ، هُوَ كاتِبٌ أَمينٌ، وأديبٌ لامِعٌ، ومُؤَرخٌ يَتمتَّعُ بعلمٍ سَاطِعٍ قد وَرِثَ الفَضْلَ والعِلمَ والسُّؤدُدَ عَن آبائِهِ وأجدادِهِ الّذينَ يمتَدونَ بِنَسَبِهم العَربيِّ إلى أُصولٍ عريقةٍ ضاربَةٍ في التَّاريخ والزَّمَنِ.

الصَّاحِبُ ابْنُ العديم ارْتَبَطَ اسْمُهُ واسمُ عائِلَتِهِ بِالمدينةِ الشَّهباءِ حَلبَ، وفي مُختلفِ العُصورِ والحُقبِ فيما بَعْدَ عَصرِهِ، ما ذُكِرَتْ مَدينَةُ حَلبَ إلا وذُكِرُ ابْنُ العَديم، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَرَّخَ لها كتاباً موسوعياً، خلَّدَ فيهِ أَمجادَها وتاريخَها العَريقَ كحاضِرَةٍ مِنْ حَواضِرِ بِلادِ العَربِ والإِسلامِ، حَيثُ تَعاقَبَتْ فيها المَمالِكُ والدُّوَلُ، وتَناوبَ على حُكمِها المُلوكُ والسَّلاطِينُ والأُمراءُ، وانْدَحرتْ على أَسوارِها جَحافِلُ جيُوشِ الغُزاةِ، الَّذينَ حاوَلوا كثيراً مُناوَءَةَ أُمَّتِنا العربيَّة والإسلاميَّةِ وطَمْسَ مَعالِمِ مَجدِها وحَضَارَتِها، فَما اسْتطاعوا بِها كيداً أَو هَزيمةً، وبَاؤوا بِفَشلٍ وخُسْرانٍ مبينٍ.

وفي وقتٍ عَصيبٍ على هَذِه الأُمَّةِ، غَدرَ بِها الزَّمانُ بتَفَرُّقِ كَلمَتِها، وشَتاتِ صُفوفِها، واخْتِلافِ حُكَّامِها، فَتمكنَ بِهم الذُّلُّ والهَوانُ، وَوَقعوا في قَصيدةِ غُزاةِ الشَّرقِ، ولَمْ يرضَ الصَّاحِبُ ابْنُ العَديم أَنْ يتولَّى مَنْصباً في ظِلِّ سَيطرةِ الغُزاةِ على بِلادِهِ وأَوطانِهِ، ورفَضَ بِجَسارَةٍ وجُرأةٍ عَرضَ سُلطانِ السَّفاحينَ والجَزَّارينَ «هولاكو» المَلكِ التتاريِّ الّذي عُرفَ بِغَدرِهِ لِكُلِّ مَنْ يَقفُ بِوَجْهِهِ، أو يعارضُ لَهُ طلباً.

فالصَّاحِبُ ابْنُ العَديم، لا تَأْخذُهُ بِاللهِ لومةَ لائمٍ، ولا يطلبُ العِزَّة والمِنْعَةَ إِلَّا مِنْ رَبِّهِ، وقَدْ أَبْهَرتْ هَذهِ النَّفسُ الذَّكيَّةُ والأبيَّةُ الملوكَ والسَّلاطينَ الّذينَ عاصَرَهُمْ ولازَمَهُمْ، فَحسبوا لشِخصِهِ حِسَاباً وقَدَّروا لِعِلْمِهِ مَنْزِلَةً، فَهو قَدْ شَغَلَ الملُوكَ والسَّلاطينَ بِجَراءَتِهِ، كَما شَغلَ النَّاسَ بِعلمِهِ.

فَمَنْ هو الصَّاحبُ ابْنُ العَديم.

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبو القَاسِمِ، عُمَرُ بْنُ أَحمدَ بْن أبي الفَضلِ هِبَةِ اللهِ بِنِ أبي جُرادَةَ، المَعروفُ بِالصَّاحِبِ ابْنِ العَديمِ، الملقَّبُ بِكمَالِ الدِّينِ، الهَوازِنيُّ العَقيليُّ الحَلبيُّ، وأَبوهُ أَبو الحَسَنِ أَحمدُ بْنُ أبي الفَضلِ قَاضي قُضَاةِ حَلبَ.

ولِدَ الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ في مدينَةِ حَلَب عامَ (586) هِجريَّةً، ونَشَأَ وترعرعَ فيها مُكِبّاً عَلى العِلمِ في صُحبَةِ أَبيهِ يَسْمَع فيه، ويُسافِرُ مَعَهُ إلى حواضِرِ المُدنِ الكُبرى في بلادِ العربِ والإسلام.

وقَبلَ الخَوضِ في تَرجمَةِ حياةِ ابنِ العَديمِ، لابُدَّ لَنا أَنْ نَقِفَ وقفةً يسيرةً نَسْتَطلِعُ خِلالَها نَسَبَه العربيَّ العَريقَ، فَيرجِعُ نَسبُ عائلَتِهِ إلى أَبي جُرادَةَ عَامرِ بْنِ ربيعَةَ صَاحِبِ الإمام عَليِّ بْنِ أبي طَالبٍ كَرَّمَ اللهُ وجْهَهُ. وأَبو جُرادَة هو: عامرُ بْنُ ربيعَةَ بْن خُويلد، يَنْتَسبُ إلى ربيعَةَ بْنِ عَقيلٍ إِحْدَى كُبرياتِ قبائِلِ عامرِ بْنِ صَعْصَعَةَ العَدنانيَّةِ.

وكَما يقولُ الأُستاذُ الدكتورُ سُهيل زَكَّار في مُقَدِّمَة تحقيقهِ لِكتابِ بُغيَةِ الطَّلَبِ لابْنِ العَديمِ:

إَنَّ أبا جُرادَةَ عامِرَ بْنَ ربيعةَ قطَنَ مدينةَ البَصرةِ، وفي هَذهِ المدينَةِ عَاشَ آلُ أبي جُرادَةَ وأَحفادُهُمْ، وفي مَطلعِ القَرنِ الثَّالثِ لِلهجرَةِ قدمَ أَحَدُ أَفرادِ أُسرَةِ أبي جُرادَةَ إلى الشَّامِ في تِجارَةٍ، وكانَ اسمُهُ موسَى بْنُ عيسَى. وحَدَثَ آنَئذٍ أَنْ أَلَمَّ بِالبَصْرَةِ طاعونٌ، ولهذا قرَّرَ مُوسَى البَقاءَ في الشَّامِ، واستوطَنَ مدينَةَ حلبَ، وفي هَذهِ المدينَةِ خَلفَ موسَى بْنُ عيسَى أُسرةً نَمَتْ مَعَ الأَيَّامِ عَدداً ومكانَةً وثَروَةً وشُهرةً، وتَملكَت الأَملاكَ، وساهَمَتْ في جميعِ

ميادينِ الحياةِ في حلبَ مِنْ سياسةٍ وعلمٍ وقَضاءٍ وإدارَةٍ وتجارَةٍ، ولهذا غَدَتْ أُسرَةُ آلِ أَبي جرادَةَ مِنْ أَبْرَزِ أُسَرِ حلبَ، حَتَّى حَلَّ الدَّمارُ بِهذهِ المدينَةِ العريقَةِ على أيدي جُيوشِ هولاكو فتفرَّقت هَذهِ الأُسرةُ في المُدنِ والبُلدانِ، ومع مرورِ الأَيّامِ اكتَسَبت اسماً إِضافِيّاً، هُوَ العَديمُ.

وليسَ هُناكَ سببٌ أو تعليلٌ ذَكرهُ المُؤَرخون لِهَذِهِ التَّسميَةِ، وَقَدْ ذَكر ياقوتُ الحمويُّ ـ وكان قَد التَقى بِابْنِ العديمِ في حلبَ ـ اسْتِفسارَهُ مِنْه عَنْ هَذِهِ التَّسميَةِ فقالَ: «سَأَلْتُهُ: لِمَ سُميتُمْ بِبَني العَديمِ؟ فَقَالَ: سَألتُ جَماعةً مِنْ أَهلي عَنْ ذَلِكَ فَلَمْ يَعرفوهُ، وقالَ: هُوَ اسْمٌ مُحْدَثٌ لَمْ يكُنْ آبائي القُدماءُ يعرفونَ بِهِ، ولَمْ يَكُنْ في نِساءِ أَهلي مَنْ يعرفُ بِهذا، ولا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّ جَدَّ جَدِّي القَاضي أَبا الفَضْلِ هِبَةَ اللهِ، كَانَ يُكثرُ في شِعرِهِ مِنْ ذِكرِ العُوَزِ وشَكوى الزَّمانِ مَعَ ثَروةٍ واسِعَةٍ ونعمةٍ شاملةٍ فَسُمِّي بِذَلِكَ».

❁ ❁ ❁

في صِغَرِهِ تَتَلمَذَ على أَبيهِ قَاضي القُضاةِ في حَلبَ، وعَلَى عَمِّهِ أَبي غانمٍ مُحمَّدِ بْنِ أَبي الفَضلِ، وكانَ أبوهُ أبو الحَسَنِ، يَخطبُ في قلعةِ حلبَ أَيَّامَ نُورِ الدِّينِ الزَّنكيِّ، وَوُلِيَ الخَزانَةَ أَيَّامَ وَلدِهِ الصَّالِحِ إسماعيلَ، وقُلِّدَ قَضاءَ حلبَ عام (557) هجريَّةً حَتَّى أَيَّامِ النَّاصِرِ صَلاحِ الدِّين الأَيوبيِّ.

ويُحكى أَنَّ أَبا الحَسَنِ كَانَ رَديءَ الخَطِّ عِندَما يَكتبُ، فَأرادَ أَنْ يُجَنِّبَ ابْنَهُ هَذهِ الخِلَّةَ، فَشجَّعَهُ عَلى إِتقانِ فُنونِ الخَطِّ العَربيِّ وقَواعِدِهِ، فَشَرعَ كَمالُ الدِّين على تَعلُّمِ ذَلِكَ وهُوَ لَمْ

يَزلْ في الثَّانية عَشرَةَ مِنْ عُمره تَحتَ إِشرافِ أَحَدِ العُلماءِ نُزلاءِ حَلبَ عُرفَ بِمعرفَتِهِ بِأصولِ وقواعِد الخطِّ العربي، وهوَ تاجُ الدِّينِ بْنُ البُرفُطيِّ البَغداديُّ، حَتَّى أَتْقَنَ ذَلِكَ وبَرَعَ فيه بَرَاعةً فائقَةً، حَتَّى أَطْنَبَ فيما بَعدُ الحافظُ شَرفُ الدِّينِ الدِّمياطي في وَصفِهِ وقال: «وُلّي قَضاء حَلبَ خَمسَةٌ مِنْ آبائِهِ مُتتاليَةٌ، ولَهُ الخَطُّ البَديعُ والخَطُّ الرَّفيعُ والتَّصانيفُ الرَّائِعَةُ، فيْها تاريخُ حَلبَ».

ثُمَّ لَمَعَ نَجمُ الصَّاحبِ ابْنُ العَديمِ في الحياةِ العلميَّةِ والسِّياسيَّةِ لمدينَةِ حَلبَ، وتَرقَّى في المنَاصِب والوَظائفِ حَتَّى وصَلَ إِلى رُتْبَةِ وزيرٍ في عَهدِ السُّلطانِ غازي بْنِ صلاحِ الدِّين الأيوبيِّ.

❁ ❁ ❁

عِنْدَما اقْتَحَمَتْ جيوش التَّتَارِ بقيادَةِ هُولاكو البِلادَ واحتَّلوا حلَبَ وأَشَاعوا فيها الخَرابَ والدَّمارَ عَرَضَ عَليهِ هولاكو أَنْ يَشْغَلَ مَنصِبَ القضاءِ، لَكنَّ الصَّاحِبَ ابنَ العَديمِ رفضَ ذَلِكَ بِشدَّةٍ، ووَجَدَ أَنَّ مِنَ العَارِ التَّعاونَ، ووَضعَ يَدِهِ بيَدِ مَن احتلَّ بِلادَهُ وأوطانَهُ، وغادَرَ حَلبَ إلى دِمَشْقَ، وهُناكَ لَاقَى الحفاوَةَ مِنْ سُلطانِها، ثُمَّ غادَرَ دِمَشْق إِلى مَدينَةِ غَزَّةَ في فلسطينَ ثُمَّ إلى مِصْرَ. وكَانَ يَحضُّ السَّلاطين مِنَ بَني أيوب، ومِنَ المماليكِ عَلَى الجهادِ وقِتالِ التَّتارِ، وفي مِصْرَ عَمِلَ مع الشَّيخِ العِزِّ بْنِ عَبْد السَّلامِ بدَعم من السُّلطانِ قِطْز مِنْ أَجْلِ تَدبيرِ القُوَّةِ الماديَّةِ والمعنويَّةِ لمحارَبَةِ التَّتارِ، وأشارا عليهِ أَنْ يُعامِلَ رُسلَ هولاكو بِالعنفِ مُعاملةً بِالمثلِ، وشَرطا على السُّلطانِ المُظَفَّرِ قطْز أَنْ يَنْزعَ ما في أَيدي المَماليكِ

مِنْ أَموالٍ وكُنوزٍ مِنْ أَجلِ تجهيزِ الجيشِ المَصريِّ حَتَّى يَفْتيا لَهُ بِوجوبِ خَلعِ الملكِ المنصورِ عَليِّ ابْنِ السُّلطانِ نَجمِ الدِّينِ أيوب لِصِغَرِ سنِّهِ، ثُمَّ القُبولِ بِهِ سُلطاناً على البِلادِ، فَفَعلَ السُّلطانُ قِطْزُ ما شَرطا عليهِ، وصَارَ سُلطاناً على بِلادِ مْصِرَ. وبَعدَ هزيمَةِ التَّتارِ وإِجلائِهِمْ عَنِ البلادِ عادَ ابْنُ العَديمِ إِلى حَلبَ وتَوَلَّى فيها القضاءَ، وكَانَ يتنَقَّلُ في هَذهِ الفَترةِ ما بينَ حَلبَ وحماةَ ودمشقَ والقَاهِرَةِ، وَلِكن اسْتقرَّ بِهِ المقامُ أَخيراً في القَاهرةِ، حَتَّى أَدركَتْهُ الوَفاةُ سَنَة (666) هجريَّةً ودُفِنَ في القَاهرَةِ، وذَكَر المُؤَرخونَ أَنَّهُ تُوفيَ هُوَ والشَّيخُ العِزُّ بنُ عَبْدِ السَّلامِ في عامٍ واحدٍ ولَمْ يَكُنْ بَينَ وَفاةِ الأَوَّلِ والثَّاني مِنْهُما إِلَّا أَشْهر قَليلة.

ويَذكرُ الدَّكتورُ سُهيلُ ذَكَّار:

«وفي كُلِّ مكانٍ زارَهُ ابْنُ العَديمِ كانَ يَلقَى الحَفاوَةَ مِنْ رِجالِ السُّلطَةِ، وكانَ يَلتَقي بِالعلُماءِ وشيوخِ العَصرِ فَيأَخُذُ عَنْهُمْ، ولَقَدْ أَودَعَ ما أَخَذهُ عَنْ عُلماءِ عَصرِهِ، وما رآهُ مِنْ أَحداثٍ أو شارَكَ بِهِ، أَودَعَهُ في كتابهِ «بُغيَةِ الطَّلَبِ في تاريخِ حَلبَ»، حَتَّى غَدَا هَذا الكِتابُ أَشبَهَ بِمَنْجَمٍ للمعلوماتِ لا يَنْضَبُ مَعينُهُ».

كَما خَلفَ ابْنُ العَديمِ عِدَّةَ أَولادٍ تَميَّزوا بِعلمِهِم الغَزيرِ، وتَقلَّبوا في المَناصِبِ السِّياسيَّةِ والعلميَّةِ والقضائيَّةِ، مِنْهم جَمالُ الدِّين ابْنُ العَديمِ قاضي القُضاةِ في حَماة، والقاضي مَجدُ الدِّين ابْنِ العَديمِ، والعالِمَةُ والزَّاهِدَة شَهدَةُ بِنْتُ العديمِ، والقاضي ناصِرُ الدِّينِ ابْن العَديمِ.

لَمْ تُؤَثِّرْ مَشاغِلُ السِّياسَة على عَطاءِ ابْنِ العديمِ وعلى إنتاجِهِ الفكريِّ والعلميِّ، ولَمْ تُعطِّلْهُ عَنِ النَّسخِ والكتابَةِ والتَّأليف، وترك المُؤلفاتِ والمصَّنفات الكَثيرَة التي كانَتْ مِنْ أَنفْس الكُنوزِ العلميَّةِ والتَّاريخيَّةِ والأدبيَّةِ والفِكريَّةِ الَّتي جَادَتْ بِها قَريحَةُ عَالِمٍ لبيبٍ، ومُؤَرِخ ظريف في العَصرِ الأَيوبيِّ والمَملوكيِّ.

ومِنْ أشهرِ الكُتبِ وَالمُؤَلفاتِ الّتي وضَعَها الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ:

1 ـ بُغيَةُ الطَّلبِ في تارِيخ حَلَب: وهو كتابٌ كبيرٌ في عِدَّةِ مُجلداتٍ، وقد قام باختصارِهِ في كتابٍ آخر أَسماهُ «زُبدَة الحَلبِ في تاريخِ حَلبَ» في ثلاثَةِ مجلداتٍ.

ويُعتَبرُ هذا الكتابُ مِنْ أَهمِّ كُتبِ التَّاريخِ في الحضَارَة العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، إِذْ يعكسُ تاريخ المنطقَةِ العربيَّةِ في بلادِ الشَّامِ وفلسطينَ ومصر مُنذُ أَقدمِ العُصورِ إِلى نهايَةِ العَصرِ الّذي عاشَهُ المُؤَلِّفُ، وخَصَّ فيهِ تاريخَ حَلبَ ودورها الحضاريَّ والسِّياسي والعلميَّ والعُمراني في تاريخِ العَربِ والإسلامِ، وكانَ مَنْهجُهُ فيهِ عِلميّاً استقرائياً يَقومُ على المُلاحَظةِ والتَّحليلِ، عارضاً أسبابَ الحَوادثِ والوَقائعِ التَّاريخيَّةِ التي شَاهَدَها أو سَمِعَ عنها. وكما أشارَ العُلماءُ والبَاحِثونَ قديماً وحديثاً، بِأنَّ أَهَمَّ ما يُميِّزُ هَذَا الكتابَ هُوَ نسخُهُ وترتيبُهُ وخَطُّهُ الرَّائِعُ والجميلُ الّذي كَتبَهُ ونسخَهُ ابنُ العديمِ نَفسُهُ، ولا تَزالُ مخطوطاتُ هذا الكتابِ موجودَةً في مكتباتِ لُندن وإستنبول العَامَّةِ، وكَذلِكَ في بَعضِ المكتباتِ الأهليَّةِ في الموصلِ والمدينةِ المنوَّرةِ. كَما أَنَّ مادَّةَ الكِتابِ تُوضِّحُ لَنا جَلياً الثَّقافَةَ العلميَّة والتَّاريخيَّةَ والفكريَّةَ الّتي كانَ يتمتَّعُ بِها ابْنُ العَديمِ.

2 ـ كتابُ الدَّراري في ذكرِ الدَّراري، وكَانَ قَدْ صَنَّفَهُ لِلملَكِ الظَّاهرِ غازي الأَيوبيِّ في حَلبَ.

3 ـ كتابُ ضَوءِ الصَّباحِ في الحَثِّ على السَّماحِ، وصَنَّفَهُ للمَلِكَ الأَشْرَفِ الأَيوبي.

4 ـ كتابُ الأَخبارِ المستفادةِ في ذكرِ بني أبي جرادةَ.

5 ـ كتابُ دَفعِ الظُّلمِ والتَّحري عَنْ أَبي العَلاءِ المعريِّ.

6 ـ كتابُ تبريدِ حَرارَةِ الأَكبادِ في الصَّبرِ عَلى فَقدِ الأَولادِ.

7 ـ كتابُ سوقِ الفاضلِ.

8 ـ كتابُ وَصفِ الطَّبيبِ.

وقد اعتَبرَ المُؤَرخونَ ابْنَ العديمِ مِنْ كبارِ الخطَّاطين في تاريخِ العَربِ والإسلامِ، حَيْثُ كانَتْ لَهُ طَريقَةٌ في الخَطِّ تعرَفُ، وكانَ ثالِثُ ثلاثَةٍ مِنَ النُّساخِ الّذينَ تميَّزوا بِخَطِّهِم الرَّائِع والجميل في تاريخنا العربي والإسلاميِّ، وهُمْ:

ـ أبو عَبْدِ اللهِ بْن مُقلةَ.

ـ عليُّ بنُ هلال.

ـ الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا عُرِفَ الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ؟

2 ـ لِماذا ارْتَبَطَ اسْمُ ابْنِ العديمِ بِمدينَةِ حَلَبَ؟

3 ـ إِلى مَنْ يَنتهي نَسبُ ابْنِ العَديمِ؟

4 ـ ما هي الأَعمالُ والمناصِبُ الّتي تَقَلدَها والِدُ ابْنِ العَديمِ؟

5 ـ لِماذا رَفضَ ابْنُ العَديمِ عَرضَ هولاكو؟

6 ـ بِماذا أشارَ ابْنُ العَديمِ مع العزِّ بن عبد السَّلامِ على السُّلطانِ قِطْز؟

7 ـ لماذا يُعتبرُ كتابُ بغيَة الطَّلبِ مِنْ أَهَمِّ كُتُبِ التَّاريخِ؟

8 ـ ما أَهَمُّ ما يُميِّزُ كتابَ بغيةِ الطَّلبِ؟

جَمالُ الدِّين القفطِيُّ
القاضي الأكرم
(568 ـ 646هـ)

أَعزَّائي وأَحبائي:

جَمالُ الدِّينِ القفطِيُّ، الوَزيرُ الأَكرمُ، والنَّابِغةُ والقاضي الأَعظمُ، ذاكَ الّذي لَمْ يُماثلْهُ أَحدٌ مِنَ العُلماءِ في عَصرهِ كَرماً وعطاءً، وشَهامةً ونُبلاً، وحُبّاً للعلمِ ولاقتناءِ الكُتُب وشرائِها.

هو القَاضي ابْنُ القَاضي، المنْحدِرُ مِنْ أُسرَةٍ عَربيَّةٍ كَريمَةٍ ووَجيهةٍ، ومَعروفةٍ عَلَى مُسْتوى العَالَمِ الإِسْلاميِّ في ذَلِكَ العَصرِ، فَهو مِنْ بَيْتِ عَلمٍ وأَدَبٍ ودِينٍ ووَرعٍ وتَقوى.

وهو وَزيرُ حَلبَ، مَن ارْتَبطَ اسْمُهُ وعِلمُهُ بِهذهِ المدينَةِ، فَهوَ مِنَ الأَسماءِ الّتي لَمَعتْ في سَماءِ هَذهِ المدينةِ العريقَةِ على مَرِّ التَّاريخِ والعُصورِ، فَأَعْطاها كما أَعْطَتْهُ، وقَدَّمَ لَهَا أَمانَة العِلمِ والثَّقافَةِ والتَّاريخِ كما قَدَّمَتْ لَهُ الأمانَ والمَأوَى المكينَ، فَصارَ فيها عَزيزَ الجَانبِ، مَحمودَ الذِّكرِ، حَفيلَ الوِفادَةِ، ولاقَى مِنْ أُمرائِها وسَلاطينِها كُلَّ حَفاوةٍ وتَأييدٍ.

وهُوَ ما حَطَّ رِحالَهُ ـ بَعْدَ سَفَرٍ طَويلٍ، وتَنقُّلٍ بَيْنَ عِدَّةِ بُلدانٍ ـ في مَدينَةِ حَلَب، إِلَّا لِمَا

عَرَفَ عَنْها مِنْ ازْدِهارٍ وتَأَلُّقٍ في مِضمارِ العِلمِ والمَعرفَةِ، ولِمَا تَناهَى إِلَى عِلمِهِ مِنْ إِكرامِ أُمرائِها وسَلاطينِها للعُلماءِ حَتَّى أَصبَحتْ قبلَةَ العِلمِ في مَنطقَةِ شِمال سُوريا قد أَحاطَ العُلماءَ فيها الأَمانُ والاستقرار، وشَيءٌ مِنَ الحَصانَةِ العِلميَّةِ الَّتي أَباحَها حُكَّامُها لِلعُلماءِ الّذينَ وَفَدوا إِليها مِنْ مُختلَفِ البُلدانِ والأَصقاعِ.

وإِنَّ الّذي يُطالِعُ تَرجَمَةَ حَياةِ جَمالِ الدِّينِ القِفطيِّ يَجِد نَفْسَهُ أَمامَ مادَّةٍ عِلميَّةٍ زاخِرَةٍ واسِعَةٍ، حافِلَةٍ بِما يُعتَبَرُ مِنْ جَواهِرِ المعرفَةِ، ومِنْ كُنوزِ العِلمِ وخَزائِنِ الحِكمَةِ، الَّتي تجعلُ البَاحثَ الحَصيفَ يحارُ مِنْ جانبٍ مِنْ جوانبِ شَخصيَّةِ مَن يَبدأ بَحثَهُ ودراسَتَهُ. ويُدرِكُ عَنْ كَثبٍ أَنَّ كُتُبَ التَّاريخِ والسِّيَرِ تفيضُ فيضاً بِذكرِ حياةِ جَمالِ الدِّين القِفطيِّ ورِحلتِهِ العلميَّة ونِتاجِهِ الفِكريِّ والعِلميِّ، كَما يُدركُ حَقيقةً أَنَّ أَحداً مِنَ العُلماءِ الّذينَ عاصَروهُ، لم يَبْلغوا ما وَصَلَ إِليهِ مِنْ ذَكاءٍ ونباهَةٍ، وتقديرٍ وحَفَاوةٍ مِنَ الحُكَّامِ والعُلماءِ وعامَّةِ النَّاسِ.

فَمَنْ هُوَ جَمالُ الدِّينِ القِفطِيُّ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ عَليُّ بْنُ يُوسُفَ بْنِ إبراهيمَ بْنِ عَبْدِ الواحدِ بْنِ مُوسَى الشَّيبانيُّ القِفطِيُّ، المُكَنَّى بِجمَالِ الدِّينِ أَبي الحَسنِ القَاضي الأَكرمِ، وَزيرِ حَلَبَ، العَلَّامةِ المُؤَرِّخِ.

والقِفطِيُّ نسبَةً إِلى بَلدَةِ (قفط) في صَعيدِ مِصْرَ. وُلِدَ جَمالُ الدِّين في قفط سَنَة (568)

هجريَّةً في بَيْتِ عِلمٍ وأَدبٍ، فَكانَ والِدُهُ مِنْ كِبارِ العُلماءِ والأَعيانِ في بَلدَهِ، وكانَ قاضياً لُقِّب بِالقَاضي الأَشرفِ.

ويَرجِعُ نَسبُ جَمالِ الدِّينِ القِفطيِّ إِلى قبيلَةِ بَني شَيبانَ، إِحدَى القبائِلِ العَربيَّة العَريقَةِ والأَصيلَةِ الَّتي نَزَحَتْ مِنَ الكوفَةِ بِالعِراقِ إِلى مِصْرَ مُنْذُ أَوائِلِ الفَتحِ الإِسلامِيِّ لِمِصْرَ عَلَى يَدِ الصَّحابيِّ الجَليلِ والقائِدِ الإِسلاميِّ عَمرو بْنِ العَاصِ رضي الله عنه.

انْتَشرتْ قَبيلةُ شيبانَ في مَناطقَ عَديدةٍ من بِلادِ مِصْرَ، واسْتوطَنَ بَعضُهُمْ في بَلدةِ قفط الواقِعةِ في صَعيدِ مِصرَ الأَعْلَى، والَّتي كانَتْ آنذاكَ إِحْدَى توابِعِ إِقليمٍ يُعرفُ بِالأَعمالِ القُوصيَّةِ نسبَةً إِلى مَدينَةِ قوص الّتي كانَتْ عاصِمَةً لِلإِقليمِ.

تَربَّى جمال الدِّينِ القِفطيُّ في بَيْتِ أَبيهِ تَربيَةَ العِلمِ والتَّقوى والصَّلاحِ، حَيثُ كانَ أبوهُ يوسُفُ بنُ إِبراهيمَ المُلَقَّبُ بِالقَاضي الأَشْرَفِ على قَدرٍ كبيرٍ مِنَ العِلمِ والفَضلِ والكَرمِ كما تحدَّثَ المؤرخونَ عَنْهُ، كَريماً فاضلاً وكاتباً لامعاً مُتَصرِّفاً بِضروبِ الإِنشاءِ، حَسَنَ الخَطِّ مُقرباً مِنْ سَلاطينِ عَصرِهِ الحُكَّامِ الأَيُوبيينَ، حَيثُ قَدروا مَكَانَتَهُ بينَ أَبناءِ قومِهِ، وأَنزلوهُ في صعيدِ مصرَ منزلاً كريماً، ووَلوهُ الأَعمَالَ القضائيَّةَ فيها لِثِقَتِهِم الشَّديدَةِ بِعِلمِهِ وإِخلاصِهِ في العَملِ.

كما كانَتْ والِدَةُ جَمالِ الدِّين القِفطيِّ، امرأةً صالحةً وحكيمةً على جانبٍ عظيمٍ مِنَ العِلمِ والنَّباهَةِ والذَّكاءِ أيضاً، كما وَصَفها المُؤَرخونَ: امرأَةٌ مِنْ باديَةِ العَربِ مِنْ قُضاعَةَ، صالحةٌ حَسَنَةُ العبادَةِ، فصيحةُ اللَّهجَةِ تحفظُ كثيراً مِنْ أشعارِ العَربِ وأَمثالِهِمْ وحِكَمِهِم.

نَشَأَ جَمالُ الدِّين القِفطِيُّ في بيئَةٍ علميَّةٍ، حَيثُ كانَتْ مدينةُ قوص الّتي تَتْبَعُ لها بَلدتُهُ قفط الّتي ولدَ فيها تَعجُّ بِالعَلماءِ والفقهاءِ والمُحدِّثين الّذينَ أَخَذَ يَتنَقَّلُ بينَهُمْ آخِذاً عَنْهُم العِلْمَ، إِلى جانبِ ثقافَتِهِ الّتي نَهلَها مِنْ عِلمِ أَبيهِ، واكتَسَبَها مِنْ بيت ذَويهِ الّذي كانَتْ تُعقَدُ فيهِ مجالِسُ العِلمِ والثقافةِ.

❁ ❁ ❁

ولَمْ يَكَدْ يَبْلغُ جَمالُ الدِّينِ أَربعَةَ عَشَر ربيعاً مِنْ عُمرهِ حَتَّى انْتَقَلَ للعيشِ مع أُسرتِهِ وأَبيه في مدينةِ القاهِرَةِ عَلى إِثْرِ خِلافٍ نَشَأَ بَيْنَ أَعيانِ وعُلماءِ بَلدتِهِ قِفْط، فَآثَرَ أَبوهُ السَّلامَةَ واتِّقاءَ الفِتنَةِ، فَانْتَقَلَ مع زَوجتِهِ وأَفرادِ أُسرتِهِ للعيشِ بِالقاهرةِ عاصِمَةِ البِلادِ.

ولا يَخفَى ما كانَتْ تَتَمتَّعُ بِهِ مَدينَةُ القَاهرةِ مِن ازْدِهارٍ حضاريٍّ وعلميٍّ في ذَلِكَ الوَقْتِ، إذ كانت مَركزاً لِلإشعاعِ العلميِّ والفكري والثَّقافي، كَثُرتْ فيه المساجِدُ والمَكتباتُ والمدارسُ والمَعاهِدُ العلميَّةُ والدِّينيَّةُ، كَما كانَتْ مَلاذاً وكعبَةً للعُلماءِ والفُقهاءِ والمُحدِّثينَ، وقَدْ كَانَ لِذَلِكَ الأَثر البالِغُ في نُضْجِ وتَبلْوُرِ ثَقافَةِ جَمالِ الدِّين القِفطيِّ، حَيثُ أَقْبَلَ بشَغفٍ على مَجالسِ العُلماءِ، وطَافَ على مكَتباتِ القاهِرَةِ، واجْتَهدَ في قِراءَة الكُتُبِ النَّادِرَة في مُختلَفِ العُلومِ والمَعارِفِ.

كَما حَدَثَ وَقتها أَنْ لاقَى والِدُهُ الحظْوَةَ والاحترامَ من سلاطينِ البِلادِ وهو يُقيمُ بِالقاهِرَةِ، فَأَسْنَدوا إليهِ الأَعمالَ الإداريَّةَ والقضائيَّةَ في بَعضِ المناطِقِ والمُدنِ والولاياتِ،

فَسافَرَ جَمالُ الدِّينِ مَعَ أبيهِ إلى عِدَّةِ مُدنٍ عربيَّةٍ وإسلاميَّةٍ، إلى الفِسطاطِ والقُدسِ، حَيْثُ عُيِّنَ والِدُهُ فيها والياً مِنْ قِبَلِ المَلكِ الأَيوبيِّ العَزيزِ بْنِ المَلكِ النَّاصرِ صَلاحِ الدِّين.

عَاشَ جَمالُ الدِّين القِفطي قِسْطاً مِنْ حياتِهِ في مَدينَةِ القُدسِ يُجالِسُ عُلماءَها ويَدرسُ على أَيديهِمْ، حَتَّى بَرعَ في الفِقهِ واللُّغَةِ، وصارَ له صِيتٌ حَسَنٌ بينَ أَهالي وسُكانِ بَيْتِ المَقدسِ، فَأَحَبَّهُمْ وأَحَبوهُ، وخَصوهُ بِالِاحترامِ والإجلالِ لمكانَةِ أبيه، ولِعلمِه وأَدَبِهِ الجَمِّ الّذي عُرِفَ بِه، وقَدْ عَرَضَ عَليه أَعيانُ بَيْتِ المقدسِ أَن يَتولَّى فيها أَحَدَ الأَعمالِ الإداريَّةِ والحُكوميَّةِ، وكَانَ مَنصباً مَرموقاً يُزيدُهُ في الوَجاهَةِ والنُّفوذِ والاحترامِ، لكِنَّهُ رفَضَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَلَّا يَتْركَ تحصيلَهُ العِلميَّ، ومجالَسةَ العُلماءِ، وقراءَتَهُ ومُطالَعَتَهُ في الكُتَبِ والمُصَنَّفاتِ الّتي كَانَ شَغوفاً بِها ومولَعاً في اقتنائِها.

وَلكِنْ، سَاقَت الأَقدارُ إليهِ ولأُسرتِهِ الرَّحيلَ عَنْ بَيتِ المَقدسِ بَعْدَ فتنَةٍ سياسيَّةٍ عَصَفَتْ بِها، فَاتَّجَهَ مَعَ أَبيهِ إلى مَدينَةِ حَرَّانَ الواقعَةِ في أَقصَى شمالِ الجزيرةِ بين العِراقِ وبلادِ الشَّامِ، ثُمَّ انْتَقلوا منها إلى مَدينَةِ ذي جبلةَ في بِلادِ اليَمَنِ.

أَقَامَ جَمال الدِّينِ القفِطيُّ في ذي جَبلةَ عَدَّة سَنواتٍ حَتَّى وَفاةِ أَبيهِ القاضي الأَشرفِ سَنَةَ (642) هجريَّةً، ثُمَّ انْتَقلَ مِنْها إلى مَدينَةِ حَلَبَ في شَمالِ سُوريَّةَ.

كَانَ جَمالُ الدِّينِ القِفطيُّ قَدْ سَمِعَ عَن الأمانِ والازْدِهارِ العِلميِّ والحضاريِّ ورَغَدِ العيشِ الّذي تَتمتَّعُ بِهِ مَدينةُ حَلبَ، وصَادَفَ وهُوَ يُقيمُ بِذي جبلَةَ رَجُلاً عالِماً مِنْ ذوي

النُّفوذِ عِنْدَ حُكام حَلَبَ الأَيوبيينَ وكانَ يُدْعَى «ميمونَ القَصريَّ» فَنَصَحَهُ بِالتَّوَجُّهِ إلى حَلبَ فَسافرا مَعاً.

عَاشَ جَمال الدِّينِ القِفطيُّ في حَلبَ آمِناً مُطْمَئِناً، يَتمتَّعُ بِوفرَةِ العَيشِ، مُغموراً بالنَّعيم المُقيمِ الَّذي لاقاهُ مِنْ أُمراءِ حَلبَ وأهلِها وسُكانِها وعُلمائِها، وأَكَبَّ على شراءِ الكُتبِ واقتنَائِها، وكَرَّسَ حَياتَه في حفظِ الكُتب وترتيبها، وصَارَ بَيتُهُ خَزانَةً عامِرَةً بالكُتُبِ، مِنْ أَشهرِ مَكتباتِ البِلادِ، يَفِدُ إليها الوَرَّاقونَ وتُجارُ الكُتبِ مِنْ كافَّةِ أَنحاءِ البِلادِ والأَصقاعِ، ولمكانَتِهِ العلميَّةِ، وللصِّلاتِ الحَميدةِ الّتي كانَتْ بين أَبيهِ وبينَ سَلاطينِ بَني أَيوبَ، اختَارَهُ حاكمُ ولايةِ حَلبَ السُّلطانُ غازي بنُ صَلاحِ الدِّينِ الأَيوبيُّ وَزيراً وعوناً له في إِدارةِ أعمالِ البلادِ، وأَسنَدَ إِليهِ مَنصِبَ القضاء والإِشرافِ على أعمالِ القُضاةِ في الولايَةِ، فَكانَ صاحِبَ الحَلِّ والعقدِ فيها، وقَامَ بِهذا العمل حَقَّ قيامٍ.

وفي حَلبَ لُقِّبَ جمال الدِّينِ بِالقِفطيِّ، وبِالقاضي الأَكرمِ، وبوزيرِ حَلبَ. ولَقَدْ وَفَدَ إِليهِ كبارُ العُلماءِ والمُؤرخينَ في عَصرِهِ، كَابْنِ الأثيرِ المُؤَرخِ الشَهيد، وياقوت الحَمويِّ المُؤَرخِ والجُغرافيِّ النَّبيهِ. وقَد اسْتفادَ جَمالُ الدِّينِ القفطيُّ مِنْ مَعرفَتِهِ لياقوت الحمويِّ كَثيراً، حَيثُ جَلبَ لَهُ الكُتُبَ والمصَنَّفاتِ والمخطوطاتِ النَّادِرةَ مِنَ المُدنِ والبُلدانِ البَعيدةِ الّتي كَانَ يُسافِرُ إليها ياقوت ويحملُ منها الكُتبَ بائعاً وشارياً ومُتاجراً.

ومَعرفَةُ جَمالِ الدِّينِ لياقوت الحمويِّ، شَجَّعتْهُ على التَّأَليفِ والبَحثِ والتَّصنيفِ، وشَدَّتْهُ كَثيراً إِلى اعْتِزالِ العَملِ الحكُوميِّ، والاعتذارِ عَن المَنْصِبِ السِّياسيِّ المرموقِ الّذي كانَ يتمتعُ بِهِ ويَشغلُهُ.

فَبعدَ أَن عمل وَزيراً وقاضياً للسُّلطانِ غَازي، واسْتمرَّ يشغلُ هذا المنصبَ عِدَّة سَنواتٍ من سَنةِ (616) إلى (628) هجريَّة، ساسَ خلالها النَّاسَ بِالمرُوءَةِ والحكمَةِ أَحْسَنَ سياسَةٍ، وهُوَ يَخدمُهُمْ ويَرعَى لَهُمْ مَصالِحَهُم بالعَدلِ والإحسانِ، مُبتغياً مِنْ وراءِ ذَلِكَ مَرضاة اللهِ. . . قَدَّمَ اعتذارَهُ وإعفاءَهُ مِنَ هَذا العَملِ مِنْ سُلطانِ البلادِ ليتفرغَ تَفرُّغاً كاملاً لِلبَحثِ والتَّأليفِ واقتناءِ الكُتب الّتي كانَتْ أَهَمَّ شيءٍ له في هَذِه الدُّنيا، فَأجَابَهُ السُّلطانُ وهُوَ مُكرهٌ عَلَى طَلبِهِ، لِأَنَّهُ كانَ لا يَجدُ خيراً مِنْهُ في شُغلِ هذا المَنْصِبِ مِنْ بينِ أَعيانِ وعلماءِ عَصرِهِ.

أَوردَ ياقوتُ الحموَيُّ كثيراً مِنَ المواقفِ المُشرِّفَةِ والإنْسانيَّةِ لِجمالِ الدِّينِ القفطيِّ وهو يَعملُ وزيراً وقاضياً في البلادِ، وتحدَّثَ عَنْ كَرمِهِ العظيمِ وإكرامِهِ للعُلماءِ والأَدباءِ وإغداقِهِ الأَموالَ الكثيرةَ على الورَّاقينَ الّذين يجلبون إليهِ الكُتبَ والمخطوطاتِ، وإنْ دَلَّ على ذَلِك شيء فإنَّما على حُبِّهِ العارمِ لِلْعِلمِ، هذا الحُبُّ الّذي أَشغلَهُ وأَنْساهُ الزَّواجَ وإنجابَ الأَولادِ، ولكِنَّهُ تَزاوجَ مَعَ مَكتبتِهِ الزَّاخِرةِ بالكُتب النَّادرة، وأَنجبَ العديدَ مِنَ المُؤلفاتِ والمُصنَّفات الَّتي تُعتَبرُ مِنْ أَهَمِّ كُتبِ تُراثِنا العلميِّ والأَدبيِّ. وقَدْ أَشارَ المُؤَرخونَ إلى أَنَّ القِفطيَّ تَرَكَ أَكثرَ مِنْ خَمسةٍ وعشرينَ كتاباً مِنْ تَأليفِهِ وتصنيفِهِ في كَثيرٍ مِنَ الفنونِ والمَعارفِ، وكانَ أَهَمُّها:

1 ـ أَخبارُ العُلماءِ بِأَخبار الحُكماءِ: وهو الكتابُ المَعروفُ بـ «تاريخِ الحُكماءِ»، وقد وَصَلَ إِلينا مُختَصراً وهو يحتوي على (414) ترجَمة لِلأَطبَّاءِ والنَّحويينَ والعُلماءِ مُنذُ أَقدمِ العصورِ حَتَّى أيَّامِ المُؤَلِّف.

2 ـ إِنباهُ الرُّواةِ على أَنباهِ النُّحاةِ: وهو الكتابُ المعروفُ بـ «تاريخ النُّحاةِ»، ويَقعُ في أَكثرَ مِنْ جزءٍ، وهُوَ مِنَ المعاجِمِ الّتي جادَتْ بِها خزانَةُ الفكرِ والأدبِ العربيِّ والإسلاميِّ في العَصرِ الأَيوبيِّ، ويحتوي على ترجَمةٍ للعديدِ مِنْ علماء العرب والإسلامِ مِنْ أَقدمِ العصورِ إلى عَصر المُؤَلفِ، وقد اعتَنَى فيهِ بترجَمةِ حياةِ العُلماءِ مُعرِّفاً بِعلمِهِمْ وبَلدِهِمْ تعريفاً موسوعياً، وهو مرجعٌ هامٌّ في علمَي الجغرافيا والتَّاريخ.

3 ـ مجموعةٌ مِنَ التواريخِ والكُتُب الثَّمينَةِ، منها:

ـ كتابُ أَخبار مِصرَ مِن ابْتدائِها إلى عصرِ صَلاحِ الدِّينِ.

ـ كتابُ تاريخِ المغربِ.

ـ كتابُ تاريخِ اليمَن.

ـ كتابُ تَاريخِ السَّلجوقيَّةِ.

ـ كتابُ أَخبارِ المصَنِّفينَ وما صنَّفوهُ.

توفي جمالُ الدِّين القِفطيُّ سَنةَ (646) هجريَّةً ودُفِنَ بِحلبَ، وأَوصَى بِكُتُبِهِ لِلنَّاصِرِ، وكانَتْ تُساوي وقْتها خمسينَ ألفَ دينارٍ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ لِماذا حَطَّ القِفطيُّ رِحالَهُ في حَلَبَ؟

2 ـ ماذا أَحاطَ العُلماءَ في مدينَةِ حَلبَ؟

3 ـ إلى مَنْ يَرجِعُ نَسبُ جَمالِ الدِّينِ القفطيِّ؟

4 ـ كيفَ وصَفَ المُؤَرخونَ والِدةَ جمالِ الدِّينِ القفِطيِّ؟

5 ـ لِماذا انْتَقَلَ جمالُ الدِّين القفطيُّ مَعَ أَبيهِ إلى القاهرةِ؟

6 ـ كيفَ كانَ وضعُ جَمالِ الدِّين القفطيِّ في بيتِ المَقدسِ؟

7 ـ كيف عاشَ جَمالُ الدِّين القفطيُّ في حَلبَ؟

8 ـ ما أَشهرُ مُؤلفاتِ جَمالِ الدِّينِ القفطيِّ؟

يَاقوتُ الحَمويُّ
الرَّحالةُ الأَديبُ
(575 ـ 626هـ)

أَعزَّائي وأَحِبَّائي:

ياقوتُ الحَمويُّ، الرَّحالةُ والأَديب، مِن العُلماءِ الّذينَ آمَنُوا بِأنَّ العِلمَ هُوَ أَعظمُ شِيءٍ يَجبُ أَنْ يَحرِصَ الإنسانُ على تحصيلِهِ والسَّعي إِليهِ، ولِهذَا تَركَ مِنْ أَجْلِهِ تَجارَتَهُ العَامِرَةَ والمُربِحَةَ، وآثَرَ أَنْ يعيشَ عيشَةَ الشَّظفِ والفَقرِ، وكَرِهَ أَنْ يتنعَّمَ بالغِنَى والرَّخاءِ وهوَ بعيد عَنِ العِلمِ وتحصيلِهِ.

ياقوتُ الحمَويُّ، الرَّحالةُ والجُغرافيُّ والأَديبُ الَّذي ضَربَ ساعياً في البُلدانِ والأَصقَاعِ، وتحمَّل المَشاقَّ وَركبَ الأخطارَ، وعَانَى مِنَ الويلاتِ، وتَراءَى لَهُ الموتُ والهلاكُ أَكثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وهُوَ رضِي النَّفسِ بِما يُصيبُهُ ويحيقُ بِهِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَجلِ جَمْعِ المعلوماتِ، والتَّأليفِ والتَّصنيفِ، والتَّعرفِ على الأَصقاعِ والبُلدانِ والجبالِ والسُّهولِ والوديانِ وكُلِّ ما يتعلَّقُ بُمشاهداتِهِ عَنِ الطَّبيعةِ والإِنْسانِ، يُدَوِّنُ ذَلِكَ في سفرٍ خَالدٍ تَنْتَفِعُ بِهِ البَشَريَّةُ عَلى مَرِّ الأَزمانِ، وتَعاقُبِ الأَجيالِ.

وفضلاً عَنْ كَونِهِ جُغرافياً ومُؤَرِّخاً ناجحاً، فَقَدْ كَانَ أَديباً بارعاً وحصيفاً، وشاعراً مَليحاً لبيباً، قَدْ صَقَلت الشَّدائِدُ والمِحنُ الّتي اعْتَرَضَتْهُ في حياتِهِ خبرَتَه وتَجربتَهُ العِلميَّةَ والأَدبيَّةَ، عَلَى وَجْهٍ جَعَلتْ مِنْ آرائِهِ وأَقوالِهِ حجَّةً في كُتُبِ المُؤَرخينَ والمُصَنِّفينَ في التَّاريخِ والجُغرافيا والأَدبِ.

ياقوتُ الحَمويُّ، العَالِمُ المُجتهدُ، والكاتِبُ الأَديبُ الأَريبُ والظَّريفُ قَدَّمَ لِلأَجيالِ مِثالاً عَنْ تقديسِ العَربِ والمسلمينَ لِلعِلمِ والمَعرفَةِ، وعَنْ تَشْجيعِهِمْ لِلمَرءِ في صِغَرِهِ، لَاحظوا عليه علاماتِ النُّبوغِ والذَّكاءِ، والنهوضَ إلى العِلمِ وتحصيلِهِ.

فَمَنْ كَانَ يَظُنُّ أَو يَأمَلُ بِأَنَ عبداً مملوكاً ـ كياقوتِ الحمويِّ مثلاً ـ يَحوزُ الحريَّةَ والاحترامَ والتَّقديرَ مِنْ سَيِّدِهِ ومالِكِهِ بِما سَعَى إليهِ مِنْ شَرفِ الانتسابِ إلى العِلمِ وإِخلاصِهِ لِوَطنِهِ ودينِهِ وأُمَّتِهِ؟!

فَمَنْ هُوَ ياقوتُ الحَمويُّ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبو عبد اللهِ ياقوتُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الحمويُّ، ثُمَّ البَغداديُّ، وهذا الاسْمُ الكنيَةُ واللَّقبُ كَانَ كُلُّه افتراضيّاً في شخصيَّةِ ياقوت، لأَنَّهُ في الحقيقةِ مجهولُ النَّسَبِ، وكُلُّ ما يُعرفُ عَنهُ أَنَّهُ يَرجع في أَصلِهِ ونَسبِهِ إلى سيِّدِهِ التَّاجِرِ الحَمويِّ الولادَةِ، والبَغداديِّ الإِقامَةِ «عَسْكَرِ بْنِ أَبي نَصر البَغداديِّ» الّذي اشتراهُ مِنْ أَسْواقِ النَّخاسَةِ في بَغدادَ، وتَوَلَّى تربيتَهُ ورعايتَهُ.

والمُؤرخونَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ ياقوتَ الحمويَّ، كانَ غُلاماً مملوكاً في صِغرِهِ، وَلكِنَّهُمْ مُختلفونَ حَوْلَ أَصْلِهِ الحقيقيِّ في رَأْيَينِ مُختلفين:

الرَّأْيُ الأَوَّلُ: فأَصحابُ هَذا الرَّأْي يَقولونَ: أَنَّ والِدَ ياقوت الحَمويِّ، أَصْلُهُ رَجُل عَربيّ مِنْ مَدينةِ «حَماةَ» السُّوريَّةِ، وكَانَ جُندياً في صُفوفِ الجيشِ العربيِّ الإسلاميِّ في عَهْدِ الدَّولَةِ الحَمدانيَّةِ، فَأَسرَهُ الرُّوم في إِحْدَى إِغاراتِهِمْ على الثُّغورِ الّتي كانَ يُرابِطُ فيها، ولَمْ يَسْتطِع الحَمدانيونَ فداءَهُ، فَبقيَ أَسيراً في بِلادِ الرُّوم، وتَزوَّجَ هُناكَ مِنْ فتاةٍ روميَّةٍ فقيرةٍ، أَنْجَبَتْ مِنْه يَاقوتاً، ثُمَّ قُدِّرَ لياقوت وهُوَ لَمْ يَزَلْ غُلاماً صغيراً أَن انْتَقَلَ للعيش في بَغدادَ، وعاشَ مَوْلى لتَاجِرٍ غَنيٍّ مِنْ أَعيانِ مدينةِ بَغدادَ اسْمه «عَسْكَر بْن أبي نَصْرٍ» وعاملَهُ عَسْكَر مُعاملةَ الأبِ لِابنِهِ.

الرَّأْيُ الثَّاني: أَنَّ ياقوتَ أَصْلُهُ غُلام رومي وَقَعَ في الأَسْرِ إِثْرَ إِغارَةٍ شَنَّتْها الجيوشُ العربيَّةُ والإسلاميَّةُ عَلى مُعْسكرٍ للجيوشِ الرُّوميَّةِ عَلَى تخومِ البِلادِ، فَابْتَاعَهُ في مدينةِ بغدادَ رجلٌ تاجرٌ ـ كما يَقولُ ابْنُ خلكانَ ـ اسْمُهُ عَسكَرُ بْنُ أَبي نَصْرٍ إِبراهيم الحَمويُّ، وكَانَ مِنْ عادَةِ العربِ والمُسلمينَ أَنْ يُطلقوا على الموالي والعبيدِ أَجملَ الأسماء وأَكرمَها، فَأطلَقَ عَليهِ عَسكر اسْمَ ياقوت، ونَسبَهُ إلى أُسْرَتِهِ الحمويَّةِ فَصارَ اسْمُهُ ياقوتَ الحمويَّ ولَمَّا كانَ مَجهولَ اسْمِ الأبِ الرُّوميِّ، فَقَدْ جَعلوهُ عَبداً مِنْ عَبيدِ اللهِ، ومُنذُ ذَلِكَ أَصبحَ اسْمُهُ ياقوتَ بنَ عَبْدِ اللهِ، وكُني بِأبي عَبْدِ اللهِ، ولُقِّبَ بِشهابِ الدِّينِ.

❋ ❋ ❋

لَقَدْ كانَ «عَسْكَرُ» رَجُلاً تَاجراً غنيّاً، ولَكِنْ تَعوزُهُ القِراءَةُ والكِتابةُ ولَيْسَ لَهُ مَعرفة بِهما، الأَمرُ الذي دَفعَهُ إلى إِيداعِ غُلامِهِ يَاقوت في أَحَدِ كتاتيبِ مدينَةِ بَغدادَ ليتعلَّمَ القِراءَةَ

والكِتابَةَ ولِيُساعِدَهُ بَعدَ ذَلِكَ في عَمَلِهِ التِّجاريِّ الَّذي يَتَطَلَّبُ مَعرفَةً بِالقِراءَةِ والكِتَابَةِ في كَثيرٍ مِنَ الأَحيانِ.

فَانْدَفَعَ ياقوتُ إِلى التَّعلُّمِ انْدفاعاً عظيماً، كما صارَ يتردَّدُ على مَساجِدِ بغدادَ، وبشكلٍ خاصٍّ المَسْجدِ الزَّيديِّ في حارَةِ ابْنِ دينارٍ، تَعلَّمَ فيهِ على يَدِ أَحَدِ الشُّيوخِ مَبادِئَ اللُّغَةِ العربيَّةِ، والحِسَابَ والأَدبَ والشِّعرَ، واطَّلَعَ في مكتبةِ المَسْجدِ عَلَى الكُتُبِ العديدةِ في الأدب والشِّعرِ والتَّاريخ.

وعندَما بَلغَ ياقوتُ السَّادسَةَ عَشرةَ مِنْ عُمُرِهِ أَتْقَنَ القِراءَة والكتابَةِ بِبراعَةٍ، وصارَ عَلَى قَدرٍ كبيرٍ مِنَ الثَّقافَةِ العَربيَّةِ والإِسلاميَّةِ، ثُمَّ عَلَّمهُ وَليُّهُ عَسكَر مَبادِئَ التِّجارَةِ، وسَافَرَ مَعهُ إلى البُلدانِ المُجاورَةِ لِبغدادَ مِنْ أَجْلِ العَمَلِ بِالتِّجارَةِ، وبِشَكلٍ خاصٍّ إِلى جَزيرَةِ «كيش» الواقعةِ في جنوب الخليج العربيِّ، وكانَتْ جزيرةً شَهيرةً في التِّجارَةِ وَقْتها وعَامِرَةً بِالزُّروعِ والأَغنامِ والأَبقارِ والكروم، وفيها أُسطولٌ بَحريٌّ تجاريٌّ تُحملُ إليها، كما تُنْقَلُ مِنْها البَضائِعُ إِلَى الهِنْدِ والصِّين.

ولَمَّا اطْمأَنَّ عَسكَرُ إِلى دِرايَةِ ياقوت بِفنون البيعِ والشِّراءِ وإِتقانِهِ لأُصولِ التِّجارَةِ، جَلَسَ في مَتْجَرِهِ في بغدادَ ونَدبَ ياقوتَ لِلسَّفَرِ وقيادَةِ قافلَتِهِ التِّجاريَةِ إلى جزيرةِ كيش، وكَذلِك إِلى بِلادِ فارس والشَّام، وفلسطينَ ومِصْرَ والحِجازِ، وتَوالَتْ أَسفارُ ياقوت التِّجاريَةُ، وكَانَ أَثناءَ رِحلاتِهِ وأسفارِهِ التِّجاريَّةِ يُدَوِّنُ مُلاحظاتِهِ الخَاصَّةَ عَنِ الأَماكنِ والبُلدانِ والمساجدِ والقُصورِ والآثارِ القَديمَةِ والحَديثَةِ، والحكاياتِ والأَساطيرِ والغَرائبِ والطَّرائفِ.

وعِنْدَما بَلَغَ ياقوتُ الحَادِيَةَ والعشرينَ مِنْ عُمرهِ، وقَعَتْ بَيْنَهُ وبَيْنَ مولاهُ عَسكر جَفوَةٌ وخِلافٌ، فَأَعْتَقَهُ بِمُوجِبِهِ مولاهُ، وأَبعدَهُ عَنهُ، فَانْدَفَعَ يَاقوت نَحْوَ المُطالَعَةِ والقِراءَةِ والنَّسْخِ، واتَّخذَ لَهُ دُكاناً يعملُ فيها بِتجارَةِ الكُتبِ ونَسْخِها لِمَنْ يَرغبُ بِشِرائِها.

❋ ❋ ❋

عِنْدَما تَوسَّعَتْ تجارَةُ ياقوت في الكُتبِ والمَخطوطاتِ فَكَّرَ بِالسَّفَرِ إلى البُلدانِ المجاورةِ للمُتاجَرَةِ بِالكُتُبِ، فكانَ يحملُ الكُتُبَ إلى البُلدانِ ويعودُ منها حاملاً كُتُباً جَديدةً مِمَّا مَكَّنَهُ مِنَ الاطلاعِ عَلَى مَواردِ الثَّقافَةِ العَربيَّةِ والإسلاميَّةِ الوَفيرة، ومِنَ التعرُّفِ على العُلماءِ الّذين يُودونَ شِراءَ الكُتبِ.

وفي إحدى المَرَّاتِ سَافَرَ إلى مَدينةِ حَلبَ، وكَانَ ذَلِكَ في عَام (609) هجريَّة، فَطَابَ لَهُ المُقامُ فيها، فَمَكثَ فيها عِدَّة سَنواتٍ تعرَّفَ خِلالَها عَلَى الوزيرِ والمُؤَرخِ والأَديب «القِفطيّ» الَّذي كَانَ مُغرماً باقتناءِ الكُتُبِ وشِرائِها، وجَرَتْ بَينَهما مُناظراتٌ ومحاوراتٌ شعريَّةٌ وأَدبيَّةٌ.

ثُمَّ اضْطَرَّ ياقوتُ للسَّفَرِ إلى دمشقَ، وهُناكَ جَرَتْ بَينَهُ وبينَ رَجُلٍ بَغْدادي مُناظَرَةٌ علميَّةٌ وتاريخيَّةٌ أَدَّتْ إلى اختلافِهما في الرَّأْي، مِمَّا أَدَّى إلى نَقمَةِ أَهالي دمشقَ عَليه، فَخَرجَ منها خائفاً يَترقَّبُ تَحتَ جُنْحِ الظَّلامِ كي لا ينالهُ سُوءٌ مِنَ الحُكَّامِ والأَعيانِ بِسبَبِ تَعَصُّبهِ لِرَأْيِهِ.

ذَهبَ إلى حَلبَ، ومِنْها إلى الموصلِ، ثُمَّ مدينةِ إربلَ، ومِنْها قَصَدَ خُرَّاسانَ، وأَقَامَ في مدينَةِ نيسابورَ فَترَةً مِنَ الزَّمَنِ وتَزَوَّجَ فيها، ثُمَّ انْتَقَلَ إلى مدينَةِ «مَرو»، وصارَ يَنْتَقِلُ ما بينَ

خُرّاسانَ ومَرو وخَوارِزمَ، عاكفاً على التَّأليفِ والتَّصنيفِ والمُطالَعَةِ والنَّسخِ إلى جانبِ تجارَتِهِ في الكُتبِ الّتي لَاقَى مِنْ خِلالِها صِيتاً عظيماً في تِلكَ البِلاد. وكَانَ لا يَمرُّ في مدينةٍ أَو قريَةٍ أَو سبخَةٍ مِنَ الأرضِ إلا دوَّنَ عَنْ موقِعِها وصفاتِها وأنهارِها وجبالها وعادات أهلها في كتابِهِ الّذي أَسْماهُ فيما بَعدُ «مُعجَم البُلدانِ».

وعِنْدَما اجتاحَ التَّتارُ خَوارزمَ وما يليها مِنَ البُلدانِ اضْطر إلى العودةِ إلى العِراقِ، فَنَزَلَ في مَدينةِ إِربلَ وَلكِنْ لم يُطبْ لَهُ المُقامُ فيها، فكَتبَ إِلى الوزيرِ «القِفطيِّ» في حَلبَ رِسالَةً يَسْتَأْمِنُهُ فيها على حياتِهِ، ويعْتذرُ فيها إليهِ، ويصِفُ فيها مُشاهداتِهِ للبُلدانِ والأَصقاعِ الّتي زارَها، وكانَتْ هَذِه الرِّسالةُ غايةً في الرَّوعَةِ والجَمالِ والبيانِ، فَأقرها القفطيُّ الوزيرُ لأَميرِ البِلادِ، فَعفا عَنْهُ، فَعادَ إِلى حَلَبَ ليتفرغ للتأليفِ والتَّصنيفِ ومُجالَسَةِ العُلماءِ، ومُطارَحَةِ العِلمِ والأَدبِ مَعَهُمْ، ثُمَّ سافَرَ إِلى الشَّامِ ومِصرَ، وعادَ إِلى حَلبَ ثانيةً، وعَمَدَ إِلى نَسخِ وتَبييضِ مسوداتِ كتابِهِ مُعجَمِ البُلدانِ سَنةَ (625) هجريَّةً، ثُمَّ أَقامَ في حَلبَ بقيَّةَ عُمرِهِ إِلى أَنْ أَدْرَكَتْهُ الوَفاةُ سَنة (626) هجريَّةً.

❁ ❁ ❁

خِلالَ إِقامَتِهِ الأخيرةِ في حَلبَ تعرَّفَ ياقوتُ الحَمويُّ على مَجموعَةٍ مِنَ العُلماءِ الّذين كانوا يُقيمونَ فيها وعلى رَأْسِهِم العَالِمُ والمُؤَرخُ الشَّهيرُ «ابْنُ الأَثيرِ»، وقَبْلَ وَفاتِهِ أَوصاهُ بِوَقْفِ كُتُبِهِ ومُؤَلفاتِهِ الّتي قَامَ بِتبييضها إِلى مَكتَبَةِ جامِعِ الزَّيديِّ في بَغدادَ، وهو المسجدُ الّذي كانَتْ ذُكرياتُهُ العلميَّةُ مُتعلقَةً بِهِ مُنذُ صِغرِهِ، غَيرَ أَنَّ ابْنَ الأَثيرِ مَعَ جَلالِ عِلمِهِ وورَعِهِ لَمْ يَفِ بِوَصِيَّةِ صَاحبِهِ.

تَركَ ياقوتُ الحَمويُّ العَديدَ مِنَ المُؤلفاتِ الهَامَّةِ، منها:

1 ـ مُعجَم البُلدان: وهو أَشهرُ كُتُبِهِ قاطِبَةً، وكانَ مَنهجُهُ في هَذا الكتابِ موسوعيّاً وعلميّاً دقيقاً وتاريخياً وجُغرافياً، ذَكَرَ الفُتوحَ أَوَّلاً ووصَفَ أَقاليمَها ذاكِراً أَسْبابَ تَسميتِها واشتقاقَ أَسمائِها لُغَوِيّاً وأَسمَاءَ العُلماءِ والأُدباءِ والشُّعراءِ والشُّيوخِ الّذين نُسِبوا إليها. وكان هَذَا المُعجَمُ مِنْ أَهَمِّ كُتبِ الجغرافيا والتَّاريخِ الَّتي جَادَتْ بِها حضارَتُنا العَربيَّةُ والإسلاميَّةُ، وقَدْ أَشادَ بِهِ المُسْتَشرقون كَثيراً، واعْتَبروهُ مِنْ روائعِ ومَحاسِنِ الحضارَةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ.

2 ـ معجم الأُدباءِ: وهو كتابٌ هَامٌّ جَمعَ فيهِ أَخبارَ النُّحويينَ والقُراءِ واللُّغويينَ والشُّعراءِ والمُؤَرخينَ والكُتابِ ومَنْ صَنَّفَ في الأَدَب كِتاباً.

3 ـ مُختصر جَمْهَرةِ النَّسَبِ لِابْنِ الكلبيِّ.

4 ـ مُعجَم الشُّعراءِ.

5 ـ كتاب المُبتدأ والمَآلِ في التَّاريخ.

6 ـ كِتاب أَخبار المُتَنبي.

7 ـ كتاب أَوزانِ الأَسْماءِ والأَفْعالِ الحَاصِرَةِ لكلامِ العَربِ.

8 ـ كتاب رَدّ عَلى ابْنِ جِنيٍّ في كلامِهِ عَلَى الهَمزَةِ والأَلفِ في سِرِّ الصِّناعَةِ.

9 ـ كتاب «المختلفِ صَعقاً والمتَّفقِ وَضعاً» مِنْ فتوحِ البُلدانِ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ مَاذَا قَدَّمَ ياقوتُ الحموَيُّ لِلأَجيالِ؟

2 ـ إِلى مَنْ يعودُ نَسبُ ياقوت الحموَيِّ؟

3 ـ ما الذي دَفَعَ عَسكر لإِيداعِ ياقوت في الكُتَّابِ؟

4 ـ ماذَا أَتقنَ ياقوتُ الحمويُّ عِندَمَا بَلغَ مِنَ العُمرِ (16) سنةً؟

5 ـ أَيْنَ تقعُ جَزيرةُ كيش، ومَاذا كانَتْ؟

6 ـ ماذا كانَ ياقوتُ يفعلُ أَثناءَ سَفراتِهِ ورحلاتِهِ؟

7 ـ لماذَا خَرجَ ياقوتُ مِنْ دِمشق خائفاً يَترقَّبُ؟

8 ـ كيف كانَ مَنْهجُ ياقوت في كتابِهِ مُعجمِ البُلدان؟

تَقيُّ الدِّينِ المَقريزيُّ
إمامُ المُؤَرخين
(766 ـ 845هـ)

أَعِزَّائي وأَحبَّائي:

الإمامُ تَقيُّ الدِّينِ المَقريزيُّ، شَيخُ المُؤَرخينَ، وأَعظَمُهُمْ سِنّاً وجَلالاً وَقَدْراً، وإِنْ كانَ لِأَحدٍ مِنَ المُؤَرخينَ العَربِ يَحقُّ لَهُ التَّفاخُرُ والاعْتِدادُ بِالمَنْزِلَةِ والمَكانَةِ والإِنْتاجِ الغَزيرِ في مَجالِ عِلْمِ التَّاريخِ، فَهُوَ بِلا شَكٍّ الإِمامُ تَقيُّ الدِّينِ المَقريزيُّ شَيخُ المُؤَرخينَ وأَطعَنُهُمْ سِنّاً في الاشْتِغالِ بِهَذا العِلمِ، وأَكثَرُهُمْ أَصالَةً وعُروبَةً. فَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ المُؤَرخينَ أَنَّ المَقريزيَّ تَقيَّ الدِّينِ المُؤَرخَ المَعروفَ، وأَشْهَرَ مُؤَرخي الإِسلامِ قاطِبَةً هُوَ مِنْ سُلالَةِ العَربِ الأَصيلَةِ، فَهُوَ يَنْتَسِبُ إِلى آلِ عُبيدٍ الفَاطِميِّينَ.

وإِضَافَةً إِلى بَراعَتِهِ في عِلْمِ التَّاريخ، فإِنَّهُ برز في عُلومِ الدِّينِ واللُّغَةِ والأَدَبِ، فَكانَ إِمَاماً بها أَيْضاً، وكانَتْ لَهُ دُروسُهُ الخَاصَّة في هَذا المَجالِ بِالجَامِعِ الأَزْهَرِ الّذي كَانَ قِبلَةَ طَلَبةِ العِلمِ والمَعرفَةِ بِشَتَّى صُنوفِها في ذَلِكَ الزَّمَنِ، وما يَزالُ إِلى الآن لَهُ هَذا الدَّورُ

الرِّياديُّ في نَشرِ العلمِ والثَّقافَةِ، فجامعةُ الأَزْهَرِ اليَومَ أَعْرَقُ جامِعَةٍ في جمهوريَةِ مِصْرَ العَربيَّةِ.

وَكَما أَنَّ المَقْريزيَّ رجلُ عِلمٍ مِنَ الطِّرازِ النَّادِرِ، فَهو أيضاً رَجلُ وَجَاهَةٍ وسِياسَةٍ مِنَ النُّخبَةِ العُليا في مُجتَمَعِهِ الّذي كَانَ يَعيشُهُ، فَقَدْ تَقَلَّبَ في المَناصِبِ السِّياسيَّةِ والحكوميَّةِ بتكليفٍ مِنْ سُلطانِ البِلادِ مُباشَرةً، لِمَا رَأَى فيهِ مِنْ عَلمٍ ونَجابَةٍ وخُلُقٍ رفيعٍ، وقَدْ قَامَ بِالمهامِ الّتي أُسْنِدَتْ إِليهِ خيرَ قيامٍ في رَعايَةِ مَصالِحِ البِلادِ والعِبادِ، وفي الذَّبِّ عَنْ حُقوقِ النَّاسِ والمُجتَمعِ، مُنطلِقاً مِنَ المَبدأ الّذي حَبَّبَ إِليه، ودَعا إِليهِ رَسولُ الرَّحمةِ والإِنْسانيَّةِ، وخاتَمُ الرُّسُلِ والأَنْبياءِ سيدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ عِندما قَالَ:

«إن لله تعالى عباداً اختصهم بحوائج الناس»، ومِنْ هَذا المُنطَلَقِ، عُرِفَ المقريزيُّ بِحُبِّهِ الخيرَ لجميعِ النَّاسِ، فَكانَ يَبْذلُ الفضلَ مِنْ نَفسِهِ عَلَى مَنْ يعرفُ ومَنْ لا يَعرفُ، حَتَّى إِنَّنا نَجدُ هَذا الخلقَ، خُلُقَ السَّماحَةِ، وخُلُقَ الانفِتاحِ على الآخَرِ، وعَدَمَ التَّعصُبِ للنَّفسِ أَو الرأي أَو المُعتَقدِ يطغَى على مَنْهجِهِ في التَّأريخِ، وجَمعِ الحقائقِ وَالمعلوماتِ ـ مَعَ مراعاةِ شُروطِ صِحَّتِها حَسَبَ معاييرِ العِلمِ والمَنْطقِ ـ مِنْ كُلِّ عَارفٍ وعَالِمٍ بِها، حَتَّى إِنَّهُ أَخَذَ أَخبارَ الوَقائِعِ والأَحداثِ الماضيَةِ مِنَ اليُهودِ والأَقباطِ المعروفين بِنَزاهَتِهِمْ وصِدْقِهِمْ في رواية الأَخبار والأَحداثِ.

فَكانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَنْظُرُ إِلى غير المُسلمينَ الذين لُحمَتُهُمْ عَربيَّة، وولاؤهم لِوَطَنِهِم الّذي يَعيشون فيه، كما ينْظُرُ إِلى المُسْلِمِ في رِوايَةِ الوقائعِ والأحداث ونَقلِها لِأَنَّهُ مِنْ نَسيجِ

المُجتَمع العربيِّ والإِسلاميِّ في الماضي والحاضر والمُسْتَقبل، فَنُلاحِظُ عليه فيما كَتَبهُ وَدوَّنَهُ ـ وبشكل خاصٍّ فيما يتعلَّقُ بِتاريخ بلاد مصرَ والنِّيلِ ـ قَد اعتمد كَثيراً عَلَى رِوايَةِ أَحَدِ الأَقباطِ.

ثُمَّ نَجدُ المَقريزيَّ مُؤَرّخاً يتوَخَّى الحَذَرَ في تَدوينِ أَدقِّ التَّفاصيل الّتي كانَ يَراها ويُشاهِدُها ويَصفُها وَصفاً شامِلاً.

فَمَنْ هُوَ تَقيُّ الدِّينِ المَقريزيُّ؟

❋ ❋ ❋

هُوَ أَبُو العبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَليِّ بْنِ تَميمِ بْنِ مُحمَّدِ بْنِ إبراهيمَ بْنِ تميم بْنِ عَبْدِ الصَّمدِ، الحُسينيُّ العبيديُّ البَعلَبكيُّ الأَصْلِ، القَاهريُّ الولدِ والنشَأَةِ، ويُعرفُ بِابْنِ المَقريزيِّ نسبَةً إِلى حَيٍّ في مَدينة بَعْلَبك في بُقاعِ لُبنانَ تُعرَفُ بِحارَةِ المَقارِزَةِ، فَقَدْ كانَ أَجْدادُهُ مِنْ بَعْلَبك، وحَضَرَ والِدُهُ إِلى القاهِرَةِ وولي بِها بَعض الوظائِفِ، ثُمَّ تَزوجَ في مِصْرَ وأَنْجبَ الأولادَ واسْتقامَ لَهُ العَيشُ فيها، فَلَمْ يُغادِرها أَوْ يرحلْ عَنْها إِلى بَعْلَبك.

وُلِدَ تَقيُّ الدِّينِ المَقريزيُّ في القَاهِرَةِ سَنةَ (766) هجريَّةً حَسَب ما كَتبَ هو بِخطِّ يَدِهِ عَنْ مولدهِ في أَحدِ كُتُبِهِ. نَشَأَ وتَرعْرَعَ في مَدينَةِ القَاهرةِ، وحَدَبَ مُنذُ صِغَرِهِ على المواظَبَةِ على حُضورِ مَجالِسِ ودروسِ بَعضِ العلماءِ في القاهرةِ، وبِشَكْلٍ خاصٍّ أَولئكَ الّذين كانوا عَلى قَدرٍ كبيرٍ مِنَ العِلمِ ويلقون دروسَهُمْ في الجامِعِ الأَزهرِ، أَتْقَنَ حِفظَ القُرآنِ ثُمَّ سَمِعَ

الرِّوايَةَ والحَديثَ والفِقْهَ والتفسيرَ مِنْ عِدَّةِ شُيوخٍ كالآمديِّ والبَلقيني والحافظِ العراقيِّ وابْن حُجرٍ الهيثَمي.

وفي شَبابهِ قَصَدَ الحَجَّ، فَأقامَ في مَكَّةَ فَترةً مِنَ الزَّمنِ سَمِعَ مِنْ عُلمائِها، كما زارَ الشَّامَ، وطَافَ على عِدَّةِ علماء في دمَشقَ سَمِعَ منهم الحديثَ والرِّوايَةِ وتَفَقَّه في البدايةِ على المذهَبِ الحَنفيِّ، ثُمَّ انتَقَلَ إلى المَذهَبِ الشَّافعيِّ لأَنَّهُ كان الغالِبَ على المذاهبِ في مصرَ، غَيْرَ أَنَّهُ كانَ سَلَفيَّ النَّزعَةِ، مُتَمَسِّكاً بِمَذْهَبِ السَّلفِ الصَّالِحِ رضوانُ اللهِ تعالى عليهم أجمعين.

❁ ❁ ❁

كانَ المَقريزيُّ رَحِمَهُ اللهُ رَجُلَ الدَّولَةِ في عَصرِهِ، فكانَ السَّلاطينُ والأُمَراءُ يعرضون عَليهِ المَناصِبَ الرَّفيعَةَ، فَيَقْبَلُ تَارةً ويَرفُضُ أُخرى، حَتَّى أَعْفَى نَفْسَهُ مِنَ المَناصِبِ والوَظائِفِ ليتفَرَّغَ لِلعلمِ والتَّصنيفِ والتَّأليفِ في آخِرِ سنين حياتِه.

فَمِنَ المَناصِبِ والوَظائِفِ الّتي تولاها رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى، أَنَّهُ في البِدايَةِ بَدأ يشغَلُ وَظائِفَ التَّدريسِ والتَّعليمِ والإمامةِ والخِطابَةِ في جَوامِعِ القَاهرةِ في عَصرِ المَماليكِ، في جَامِعِ عَمرو بْنِ العاصِ في الفِسْطاط، وجَامعِ الحاكمِ في القاهِرَةِ، وفي مَدارسِ القاهرَةِ الكُبْرى، كمَدرسَةِ جامِعِ الأَزْهَرِ، ومدرسةِ معاويَةَ ومَدرسَةِ المُؤَيَّدِ.

ولَمَّا تَسَلَّمَ المَلِكُ الظَّاهِرُ بَرقوقُ مَقاليدَ الحُكْمِ في مِصْرَ قرَّبَ إِليهِ تَقِيَّ الدِّينِ المَقريزيَّ لِمَا عُرِفَ عَنْهُ مِنْ إِخلاصِهِ في العَمَلِ، وولائِهِ المُطلَقِ لوليِّ الأَمْرِ الّذي يُسوسُ النَّاسَ

بِالعَدلِ والإحسانِ، واختارَهُ لِمَنْصب الحُسْبَةِ في البِلادِ، وهُوَ مَنْصِبٌ هَامٌّ وحَسَّاسٌ لِما فيهِ مِنْ رِعايَةٍ ومسؤوليةٍ لِحقوقِ الدِّينِ والنَّاسِ، وَلمَصلحَةِ البِلادِ والعِبادِ، على الرِغمَ من أَنَّ تَقيَّ الدِّينِ المَقريزيَّ لَمْ يَبلُغْ الخَامِسَةَ والثلاثينَ مِنْ عُمرِهِ بَعْد.

فَقَدْ ذَكر ابنُ تغري بردي في كتابِهِ «النُّجومِ الزَّاهرةِ» أَنَّ المَلِكَ الظَّاهِرَ بَرقوقَ قَدْ قَلَّدَ المقريزيَّ مَنصِبَ الحُسْبَةِ وهو لم يَزلْ شابّاً يافِعاً، على الرَّغم مِنْ وجودِ مَنْ هُمْ أَطْعَنُ مِنْهُ عُمراً مِنَ العُلماءِ الفُضلاءِ، وَلكِنَّ بَرقوقَ لَمْ يَجِدْ أَجْدَرَ مِنْهُ في تولي هَذَا المَنصبِ، فَعَزَلَ شَمسَ الدِّينِ البَجاسيَّ وأَقَرَّ مَكانَهُ الشَّيخَ المَقريزيَّ، وكانَ ذَلِكَ في سَنَةِ (800) هجريَّةً.

ثُمَّ أَسْنَدَ إِليهِ المَلِكُ الظَّاهِرُ بَرقوقُ أيضاً النيابَةَ عَنْهُ في إِمضاءِ وتَوقيعِ الفَرماناتِ السُّلطانيَّةِ، وقَضاءِ حَوائجِ النَّاسِ في الأَعمالِ لِتَسْتَقيمَ حَياتُهُمْ، ويَسْتَقرَّ الأَمْرُ في البِلادِ، وخاصَّةً بَعْدَ أَن اجتاحَت البِلادَ مَجاعَةٌ شَديدَةٌ، دَفَعت المقريزيَّ فيما بَعدُ، أَنْ يكتبَ كتاباً عَن المجاعاتِ أسماهُ «كَشْفَ الغُمَّةِ».

وفي عَهْدِ المَلِكِ النَّاصِرِ ابْنِ المَلكِ الظَّاهرِ بَرقوق، لَاقَى المَقريزيُّ العنايَةَ والاهتمامَ والحفاوَةَ الّتي لَاقَاها مِنْ أبيه، وذَكَرَ المُؤَرخون أَنَّ المَلكَ النَّاصِرَ قَدْ صَحِبَهُ مَعَهُ إِلى الشَّامِ، وعَرَضَ عَليهِ مَنصِبَ القَضاءِ في دِمشقَ، فَأَقام المَقْريزيُّ فَتْرةً مِنَ حَياتِهِ في دمشقَ، درَّسَ خِلالَها في المَسْجِد الكبيرِ (المسْجِد الأُمويِّ)، وأَلْقى عَلَى طَلَبَةِ العِلمِ علومَهُ ومعارفَهُ.

وفي السَّنواتِ الأَخيرَةِ مِنْ عُمرِهِ، اسْتَقرَّ في القاهِرَةِ عاكِفاً عَلَى الاشتغالِ بِعلمِ التَّاريخِ، وإِغناءِ المَكتَبَةِ العَربيَّةِ والإسلاميَّةِ بِمؤُلفاتِهِ الَّتي شَغلَ بِها الدُّنيا.

❁ ❁ ❁

كانَ تَقيُّ الدِّينِ المَقريزيُّ عالِماً فاضِلاً سَمحاً عَطوفاً عَلَى النَّاسِ، يَسْعَى في خدمَتِهِمْ ورعايَةِ مَصالِحِهمْ، وكَانَ حريصاً على ذَلِكَ كُلَّ اَلحِرصِ، دَلَّ عَلَى ذَلِك اهتمامُهُ الكَبيرُ بالمُجتَمعِ الَّذي عاشَ فيه، وظَهَرَ جَلياً في مُؤَلفاتِهِ الّتي كَتَبَها فَكانَتْ سلامَةُ المُجتَمَعِ الإِنْسانيِّ، وطَلَبُ السَّعادَةِ والرَّخاءِ لَهُ بِمختلفِ فِئاتِهِ وطبقاتِهِ شغلَهُ الشَّاغِلَ، ولِهذا كَتَبَ عَنْ تاريخِ المجاعاتِ بشكلٍ عامٍّ، وعَن المجاعات الّتي اجتاحَتْ بِلاد مِصرَ ووادي النِّيلِ، وعَن المآسي الّتي عانَى مِنْها الأَقباطُ في مِصْرَ.

ولو أَنَّهُ كَانَ مِنْ رجالِ الدَّولةِ، ومِنَ الأَعيانِ المُقربينَ إلى السَّلاطينِ والحُكَّامِ، لَمْ يَمنَعْهُ ذَلِكَ مِن انتقادِ الأَخطاءِ الجسيمَةِ الّتي كان يَقعُ فيها السَّلاطينُ في حُكمِهِمْ، فكانَ يكرهُ مِنْهُم الاستبدادَ في الحُكْمِ لِما يلحقُ البِلادَ والعبادَ مِنْ ظُلمٍ وعُسفٍ مِنَ الحاكِمِ المُسْتَبِد.

فَقَدْ عاشَ المقريزيُّ في ظلِّ حكومتين مِنْ أَعْقَدِ الحُكوماتِ والدُّوَلِ الَّتي مَرَّتْ في تاريخِ بِلاد مِصْرَ وهُما دولَةُ المماليكِ البَحريَّةِ الّتي عُرِفَتْ بقُوّتِها وعُنفوانِها وسَماحَةِ حُكامها، ورَخاءِ البِلادِ والعبادِ فيها ويمثّلها الملكُ المُظَفَّرُ، ومن بَعدهِ الظَّاهِرُ بيبرس، ثُمَّ دَولَةُ المَماليكِ البرجيَّةِ الّتي عُرِفَتْ بِضعفِها وتَفكُّكها واسْتبدادِ حُكامِها، وفَقرِ البلادِ والعبادِ

فيها، ويمثِّلُها المَلِكُ الظَّاهِرُ بَرقوقُ، وَولدُهُ المَلكُ النَّاصِرُ، ولِهَذا نُلاحِظ مِنْ خلالِ مُؤَلفاتِهِ التَّاريخيَّة، عَدمَ رِضاه عَنْ أَداء ومُمارسات المماليك كَحُكَّام وسَلاطين وقُوَّادٍ لأَنَّهُمْ لا يَملكونَ الكفاءاتِ والمُؤَهلاتِ الثَّقافيَّةَ والعلميَّةَ الّتي تُخولُهُمْ لاسْتجرارِ الأمْنِ والرَّخاءِ والسِّلمِ للبِلادِ، وأَشَدُّ ما كانَ يُزعجُهُ مِنهمْ، تقاتُلُهُمْ وتَناحُرُهم عَلَى السُّلطَة وحياكَة المؤامراتِ والفِتَنِ، والقِيامُ بِالحروبِ والانقلاباتِ، وتدبير الدَّسائِسِ مِنْ أَجْلِ الاسْتِحواذِ عليها.

ولَمْ يَكُن المَماليكُ سِوى أَرقَّاءَ يُباعونَ ويُشترونَ في الأسواقِ، ولَولا ضعْفُ الخِلافَةِ العباسيَّةِ الَّتي وضَعَتْ مقاليدَ أمورِ الحُكْم في أَيدي مَواليها، لَمَا اسْتطاعُوا الوصولَ إِلى سدَّةِ الحُكمِ.

❋ ❋ ❋

لَقَد تخصَّصَ المَقريزيُّ بِالتَّاريخِ كَثيراً، وتبَحَّر في هَذا العِلمِ تَبَحُّراً جَعَلهُ مِنَ المُؤَرخينِ العِظامِ الّذين جَادَتْ بِهِم الحضارَةُ العربيَّةَ الإِسلاميَّةُ في مُختلَفِ عُصورِها وحُقَبِها، ومُؤَلفاتُهُ العَديدَةُ والكثيرةُ تَشْهدُ لَهُ بِذَلِكَ، وخاصَّةً فيما يخصُّ تاريخَ مِصرَ والقاهِرَةِ، فإِنَّهُ أَحيا معالِمَها وأَوضَحَ مجاهِيلَها، وجَدَّدَ مآثرَها، وترجَمَ أعيانَها، إِلى جانِبِ مُؤَلفاتِهِ الأُخرى في العَديدِ مِنَ الموضوعاتِ. وقَدْ ذَكَرَ المُؤَرخونَ أَنَّهُ صنَّف ما يقاربُ المئتي كتاباً.

ومِنَ المُؤَلفاتِ الهامَّةِ الّتي وضَعَها:

1 ـ كِتابُ المواعظِ والاعتبارِ بذكرِ الخُطَط والآثارِ: وهو كتابٌ جَمَعَ فيه تاريخَ مِصْرَ والقَاهِرَةِ وخُططها القديمَةَ وشوارِعَها وأسواقَها وآثارَها وجَوامعَها وقصورَها ودروبَها ومدارسَها وأحياءَها.

2 ـ كِتابُ السُّلوكِ في معرفَةِ دَولةِ الملوكِ: وتناول فيه تاريخَ دُوَلِ المماليكِ في مِصْرَ، ويُعتَبَرُ هذا الكِتَابُ مِنْ أَهَمِّ مُؤَلفاتِهِ قاطِبَةً لِما كانَتْ فيها فَتَرةُ حكْمِ المَماليكِ لمِصرَ وسائِرِ البِلادِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ مِنْ أَحداثٍ جِسامٍ ومَصيريَّةٍ مَرَّتْ على الأُمَّةِ.

3 ـ كتابُ «إغاثَةِ الأُمَّةِ بِكَشفِ الغُمَّةِ»: وقَدْ بَحثَ فيهِ عَنْ تاريخِ المَجاعاتِ الّتي مَرَّتْ على المجتمعِ المصري مُنذُ التَّاريخِ القديمِ إلى العَصرِ الّذي عاشَ فيهِ المَقريزيُّ، وقَدْ ذَكَرَ فيه أَسبابَ حدوث هَذهِ المجاعاتِ وما تُخلِّفُهُ مِنْ مآس ومِحَنٍ وفواجِعَ عَلَى أَبناءِ الأُمَّةِ، وأهَمُّ هَذهِ الأَسبابِ بِرأَيهِ هو غفلةُ الحُكَّامِ وانشغالِهِمْ في توطيدِ حُكْمِهِمْ عَنْ مصالحِ البِلادِ والعبادِ.

4 ـ كتابُ «شُذورِ العقودِ في ذِكرِ النُّقودِ»: وقد ذَكَرَ في هَذَا الكتابِ ضُروبَ النُّقودِ والأَموالِ النَّقديَّةِ الّتي هي عِمادُ الحركَةِ الاقتصاديةِ، وأَساسُ البيعِ والشِّراءِ.

5 ـ البيانُ والإعراب عَمَّا بِأرض مِصْرَ مِنَ الأعرابِ: وهو كتابٌ يَعدُّ مَرجعاً هاماً في معرفَةِ موضوعِ استيطانِ القبائِلِ والبدو الرُّحَّلِ مِنَ العَربِ في أرضِ مِصْرَ.

6 ـ اتعاظُ الحُنَفا في ذِكرِ الأَئِمَّةِ الفَاطميينَ الخُلَفا.

7 ـ عَقدُ جواهِرِ الأَسفاطِ في تاريخِ مدينَةِ الفُسطاطِ.

8 ـ تجريدُ التَّوحيدِ المفيد.

توفي الإمام تقيُّ الدِّين المقريزيُّ في (16) رمضانَ مِنْ سَنة (845) لِلهجرَةِ، ودُفِنَ بِالقاهِرَةِ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ ما المبدأُ الذي انطلَقَ منه المقريزيُّ عندما ولي القضاء؟

2 ـ هل اقتصر المقريزيُّ في كتبه على الأخذ من معلومات المسلمين فقط، ولِمَ؟

3 ـ عدِّد ثلاثة من المشايخ الذين أخذ عنهم المقريزي علم الحديث والفقه والتفسير.

4 ـ ما المذاهب التي تنقَّل فيها المقريزي؟ وما مذهبه الذي تمسَّك به؟

5 ـ ماذا كان شغل المقريزي الشاغل؟

6 ـ هل منعه قربه من السلاطين من انتقادهم؟

7 ـ سمِّ الحكومتين اللتين عاش في ظلهما المقريزي.

8 ـ عدِّد ثلاثة من مؤلفات المقريزي.

سَمسُ الدِّينِ ابْنُ خُلكانَ
القاضي المُؤَرِّخُ

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

شَمسُ الدِّينِ ابْنُ خُلكانَ، القاضي المُؤَرِّخُ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُعرَّفَ، فإذا ذُكِرَ التَّاريخُ ذُكِرَ ابْنُ خَلكانَ، وإذا ذُكِرَ القَضَاءُ ذُكِرَ قَاضي القُضاةِ شَمْسُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ خَلكانَ، فَهُوَ مَشْهودٌ لَهُ في الفَضْلِ وسِعَةِ العِلْمِ، وَمَعروفٌ في الأَوساطِ العِلميَّةِ والسِّياسيَّةِ في عَصْرِهِ في العِراقِ وفارِس والشَّامِ ومِصْرَ كَعَلَمٍ مِنْ أَعْلامِ العَربِ والإِسْلامِ، الّذينَ جَادوا عَلَى النَّاسِ بِعلمِهِمْ ومعارِفِهِمْ.

وَابْنُ خلكانَ مِنَ العُلماءِ الّذينَ عَاشُوا حياتَهُم الخَاصَّةَ مُنذُ أَنْ وَعَى عَقلُهُ وَإِدْراكُهُ، وَفَتحَ عَينيه عَلى هَذهِ الدُّنيا كُتِبَ عَليهِ اليُتمُ فَتربَّى في مَهدِ العِلمِ، وفي أَحضانِ العُلماءِ الّذينَ رَعَوهُ رِعايَةً علميَّةً خاصَّةً هُوَ وأَخوه بَهاء الدِّينِ ابْن خَلكانَ.

وإِذا كانَتْ مَأْسَاةُ اليُتْمِ قَدْ لاحَقَتْهُ صَغيراً، فَإِنَّ معاناةَ الكَيْدِ مِنْ حُسَّادِهِ ومُناوئيهِ قَدْ عاشها كَبيراً، ولَمْ تَكنْ هَذِهِ المحنُ الّتي وَقفَتْ لَهُ في عَرضِ حياتِهِ لِتَثنِيه عَنْ عَزمِهِ وعَنْ

غايَتِهِ في نَشرِ العِلْمِ، وتَحقيقِ العَدلِ، ورعايَةِ مَصالِحِ النَّاسِ في كُلِّ المَناصِبِ القضائِيَّةِ الّتي تَولَّاها في المُدنِ والبُلدانِ التِّي حَلَّ فيها.

كانَ مِنَ العُلماءِ العِظامِ ومِنَ الفُقَهاءِ والقُضاةِ الّذينَ اتَّبعوا القولَ بِإحسانٍ وسَلكوا سَبيلَ الرَّشادِ، ولَمْ تَغرَّهُ الدُّنيا بِمَناصِبِها وأَموالِها وجَاهِها على الرغم مما لاقاهُ مِنْ عنايَةِ الحُكَّامِ والسَّلاطينِ بِهِ فَكانَ كُلُّ هَمِّهِ مُجالَسَةَ العُلماءِ وإفادَةَ النَّاسِ مِنْ عِلمِهِ، وَاكتسابَ مَعْرِفَةٍ جَديدةٍ في الحَياةِ.

كما أَنَّ شَمسَ الدِّينِ ابْنَ خَلكَانَ قَدْ جَرَّتْ إِليهِ الأَحداثُ السِّياسيَّةُ المُتَعاقِبَةُ كثيراً مِنَ المُضايقاتِ والإِحراجات، فَقَدْ زُجَّ في تَبعاتِ الوَلاءاتِ السِّياسيَّةِ زَجّاً وعُومِلَ مِنْ بَعضِ السَّلاطينِ على هَذَا الأَساسِ، لِأَنَّ دَولة المَماليكِ كانَتْ دَولةَ انقلاباتٍ وصِراعاتٍ سِياسيَّةٍ مِنْ أَجْلِ السُّلطَةِ والحكم، فَكانَ لا ينجو مِنْ مَغَبَّةِ ذَلِكَ العلماءُ والشُّيوخُ ورِجالُ الفِكرِ والأَدَبِ، لَكِنَّ ابْنَ خَلكانَ كَانَ يَتَقبَّلُ ذَلِك بِرَحابَةِ صَدرٍ وهُوَ يعلِّلُ النَّفسَ بِالصَّبرِ، باغياً الأَجْرَ مِنَ المَولى ﷻ عِندما عُزلَ مِنْ منصبِهِ وزُجَّ في السِّجنِ أَكثرَ مِنْ مَرَّةٍ لِأَنَّهُ لم يَرضَ أَنْ يُعطيَ ولاءَهَ إِلَّا لِرَبِّهِ ﷻ، ومَنْ كان هَذا وَلاءَهُ، فكيفَ يَسْلَمُ مِنْ غَطْرَسَةِ المُسْتَبدينَ في عَصرٍ كانَ النِّفاقُ السِّياسيُّ أَهَمَّ بِضاعَةٍ يعوّلُ عليها الوُصوليونَ ليَخدموا مَصالِحَهُم المُختلفَةَ.

فَمَنْ هُوَ شَمسُ الدِّينِ ابْنُ خلكانَ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ أَحمدُ بْنُ مُحمَّدِ بْنِ إبراهيمَ بْنِ أَبي بكرٍ بنِ خلكانَ البرمُكيُّ، فَهو ينتسِبُ إِلى أُسْرَةِ البَرامِكَةِ الّذين يَعودونَ إِلى أَصلٍ فارسيٍّ، بَيْدَ أَنَّهُمْ كانُوا يَعْتزّونَ بِلسانِهِم العربيِّ، وبولائِهِم المُطلَقِ للعروبةِ والإِسلامِ. . . طَالَما أَنَّهُ عَربيُّ المَولِدِ والهَويَّةِ واللسانِ ولِهذا لَمَّا سَأَلَ أَحَدَ أَصحابِهِ في دِمَشْق، مَاذا يقولُ فيه أَهْلُ دِمَشقَ، أَخبرَهُ أَنَّهُمْ يتَهمونَهُ بِالكَذبِ في نَسبِهِ إِلى البَرامِكَةِ، فكانَ جَوابُهُ على ذَلِكَ قولَهُ:

«أَمَّا النَّسَبُ والكَذبُ فيهِ، فإذا كانَ ولابُدَّ منه، فكُنتُ أَنْتَسِبُ إِلى العَبَّاسِ، أَو إِلى عليِّ بْنِ أبي طالبٍ، أَو أَحدِ الصَّحابَةِ. وأَمَّا النَّسَبُ إِلى قَومٍ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَقيَّةٌ وأَصْلُهُمْ فُرسٌ مَجوسٌ فَما فيهِ فَائدةٌ».

ولِدَ شَمسُ الدِّينِ ابنُ خلكانَ في مَدينَةِ إِربلَ في شَمالِ العراقِ سَنةَ (608) هجريَّةً في بيتِ عِلمٍ ودينٍ وثَقافَةٍ، فَقَدْ كانَ أبوهُ شهابُ الدِّينِ مُحمَّدُ ابْنُ خَلكانَ مِنْ أَعيانِ العُلماءِ في مَدينَةِ إِربلَ، وكانَ قد رَحلَ في سَبيلِ سَماعِ العِلمِ والحَديثِ إِلى بِلادِ الشَّامِ والعراقِ والحجازِ ومِصرَ، وقَدْ تَفقَّه على كبارِ فُقهاءِ بَغدادَ والموصِلِ.

أُمْنيَةُ شَهابِ الدِّينِ أَنْ يتَّجْهَ ابْنُهُ أَحْمَدُ شَمسُ الدِّينِ إِلى سَبيلِ طَلَبِ العِلم، والتَّفَقُّهِ بِالدِّين، ولكِنَّه ماتَ وتَركَ ابْنَهُ وهو لَمْ يَبلُغْ مِنَ العُمرِ سَنتين فقط، وشَقيقُهُ بَهاءُ الدِّينِ الّذي لَمْ يكُنْ عُمُرهُ هُوَ الآخَرُ عِدَّة أَشْهُرٍ. وهَكَذا كُتبَ اليُتْمُ على شَمسِ الدِّينِ ابْنِ خلكانَ وأَخيه بَهاءِ الدِّينِ وهُما دُونَ العَقْلِ بَعْد.

ولَقَدْ كانَتْ هُناكَ عَلاقَة صَداقَةٍ قوِيَّةٍ تَربطُ بَينَ شَهاب الدِّينِ ابْنِ خلكانَ وبَيْنَ حَاكمِ

إِرْبِلَ مُظَفَّر الدِّينِ كوكبوري ابْن سُلطانِ الموصِلِ ابْنِ بَكتِكنَى، وكَانَ كوكبوري رَجُلاً يُحبُّ العِلمَ، ويُجلُّ العُلماءَ، وقَدْ سَعَى إِلى جَعلِ إِربْلَ عَاصِمة دولتِهِ الفَتيَّةِ مَقصِداً للنَّاس ولِطَلَبةِ العِلم كما هُوَ الشَأْنَ في بَغدادَ والموصِلِ، فَبَنى المدارسَ وشَيَّدَ إِلى جانبِها السَّكَنَ والمَأْوى لِلعُلمَاءِ المُدرِّسينَ فيها، ولِطَلَبةِ العِلْمِ الّذينَ يَأتونَ مِنْ خَارِجِ البِلادِ. وأَهَمُّ مَدرسَةٍ أَشادَها في إِربلَ هي المدرسَةُ المُظَفَّريَّةُ لتدريسِ عُلومِ الحديثِ والفِقهِ واللُّغَةِ، وكان مِنْ بينِ المُدَرِّسينَ المقيمينَ فيها شهابُ الدِّين ابْنُ خَلكانَ الصَّديقُ المُقرَّبُ مِنَ المَلِكِ المُظَفَّرِ كوكبوري.

❁ ❁ ❁

عِندَما ماتَ شَهابُ الدِّينِ وخَلفَ وراءَهُ طِفْلَيهِ الصَّغيرينِ اليتيمينِ، شَمسَ الدِّين أَحمدَ، وبَهاءَ الدِّينِ، تَوَلَّى المَلِكُ المُظَفَّرُ كوكبوري رِعايَتَهُما، وأَمَرَ العُلماءَ المقيمينَ في المدرسَةِ المُظَفَّريَّةِ بِالعنايَةِ بِهما وتَعليمِهِما برّاً بَصديقِهِ شَهابِ الدِينِ والِدِ اليتيمَيْنِ.

وبَعْدَ عِدَّة سَنواتٍ، كَبُرَ شَمسُ الدِّينِ وشَبَّ وهو مُتَّجِهٌ في سَبيلِ العُمرِ، فَحفِظَ القُرآن والحديثَ وهُوَ لَم يَزلْ في التَّاسِعَةِ مِنْ عُمرِهِ، وكما رَوى المُؤَرخونَ عَنْهُ:

أَنَّهُ وهُوْ لَمْ يَزلْ في هَذا العُمرِ، أُحْضِرَ إِلى مَجلْسِ العَلَّامَةِ المُحدِّثَةِ «أُمِّ المُؤَيدِ النَّيسابوريَّةِ فَسَمِعَ مِنْها وأَجازَتْهُ في الرِّوايَةِ عَنْها وأَوْصَت العُلماءَ في المدرسَةِ المُظَفَّريَّةِ بِهِ خَيْراً، فَلَقيَ شَمسُ الدِّينِ وشَقيقُهُ بَهاءُ الدِّينِ الرِّعايَةَ والعَطفَ والعِنايَةَ مِن الشُّيوخِ والعُلَماءِ

أَصْدِقاءِ أَبيهِ، وقد كانَ مَلِكُ البِلادِ كوكبوري يحيطُ الجَميعَ بِعَطْفِهِ وعطاءَاتِهِ، وكَرمِهِ إِجْلالاً لِهَذينِ الطِّفلينِ اليتيمَينِ اللَّذينِ بَدَتْ عَليهِما علاماتُ النُّبوغِ والنَّجابَةِ والذَّكاءِ.

أَخَذَ شَمسُ الدِّينِ عَنْ كبارِ عُلماءِ إِربْلَ في ذَاكَ العَصرِ، فَأَخَذَ عَنِ الإِربِليِّ، وعَنِ المُفَضَّلِ الأَبْهريِّ، وعَنْ هِبَةِ اللهِ الصُّوفيِّ وعَنْ غَيرِهِمْ مِنَ العُلماءِ والأدَباءِ الّذينَ كانُوا يَفِدونَ إِلى مَدينَةِ إِربْلَ ويَعرضونَ فيها عِلْمَهُمْ ومعارِفَهُمْ.

ثُمَّ تابَعَ تحصيلَهُ العِلميَّ، فَرَحلَ إِلى المُوصِلِ وسَمِعَ مِنْ عالمِها الكبيرِ كمالِ الدِّينِ بْنِ يُونُسَ الّذي أُعجِبَ بِهِ وبِذَكائِهِ وبِحرصِهِ الشَّديد عَلى طَلَبِ العِلمِ.

ولَمَّا بَلغَ الثَّامِنَةَ عشرةَ مِنْ عُمرِهِ تَطَلَّعَ إِلى الرَّحيلِ إِلى المُدنِ العَربيَّةِ الكُبرَى لِلحُصولِ عَلى مَزيدٍ مِنَ العِلمِ والمَعرِفَةِ، فَأَزْمَعَ السَّيرَ إِلى حَلبَ لِمَا عَرَف عَنْها مِن ازْدِهارٍ وتَطَوُّرٍ، حَيْثُ أَصْبَحَتْ محجةً للعُلماء والأُدباءِ في ذَلِك العَهدِ، وكانَتَ كما وَصَفَها هُوَ بنَفسِهِ: «أُمَّ البِلادِ. . . مَشحونَةً بِالعُلماءِ والمُشْتَغلينَ في صفوفِ العِلمِ والمعرفَةِ. . .».

فَرحلَ إِليها مَعَ شَقيقهِ بَهاءِ الدِّينِ سَنَة (626) هجريَّةً، والْتَقى فيها بِعالِمَينِ جَليلَينِ كانَا مِنْ أَصْدِقاءِ أَبيهِ، أَوَّلُهُما كَانَ حُجَّةً في الفِقهِ والشَّرائِعِ وهُوَ قاضي القُضاةِ البَهاءُ بْنُ شَدَّاد، وثانيهما كانَ نابِغَةً في عِلْمِ الرِّوايَةِ والتَّاريخِ وهُوَ المُؤَرخُ الشَهيرُ ابْنُ الأَثيرِ، كما كانَ كوكبوري المَلِكُ المُظفَّر قَدْ حَمَّلَ ابْنَ خَلكانَ وشقيقَهُ رسالةً إِلى القَاضي ابْنِ شَدَّادٍ يُوصيهِ بِاليَتيمَينِ خيراً.

❋ ❋ ❋

لَقيَ ابْنُ خَلكانَ في حَلبَ مِنَ الحفاوَةِ والإكرامِ ما جَعلَهُ يُلازِمُ شَيخَهُ ابْنَ شَدَّاد مُلازَمَةَ المُريدِ الّذي لا يَتركُ مِنْ علومِ ومعارفِ شَيخِهِ شَاردَةً أو واردةً إلَّا التقَطها وزَكَّاها بِعقلِهِ وَفكرِهِ الحصيفينِ. وعِندَما تُوفي شيخُهُ يَمَّمَ وجْهَهُ شَطرَ مدينَةِ دِمشقَ فغادَرَ حَلبَ إليها سنَةَ (632) هجرية، وقصد مُحدِّثَ الدِّيارِ الشَّامِيةِ في ذَلِك الوَقتِ «ابْنَ الصَّلاح» صَاحبَ المُصَنَّفات المشهورَة، ولَزمَهُ في دارِ الحديثِ يَسْمَعُ مِنْهُ ويَنْتَفعُ بِعلمِهِ.

وفي عام (635) هجريَّةً، رَحلَ ابْنُ خَلكانَ إلى مِصْرَ قاصِداً العُلماءَ الذينَ سَمِعَ عَنْهُمْ كثيراً، فَأَقامَ في القَاهِرَة وطَابَ لَهُ العيشُ فيها وبُهِرَ بِعُلَمائِها، ورُبَّما هَذا ما دَفَعَهُ إلى الزَّواجِ والاستقرار فيها. وفي مِصْرَ لَقيَ العالِمَ والمُحدِّثَ والطَّبيبَ المَشهورَ مُوَفَّقَ الدِّينِ البَغداديَّ واستفادَ مِنْ عِلمِهِ كثيراً، وعِندَما لمَعَ صِيتُ ابْنِ خَلكانَ هُناكَ وليَ مَنصِبَ القضاءِ سَنَة (646) هجريَّةً والقَضاءَ الشَّرعي في مَدينَة المحَلَّةِ عام (654) هجريَّةً. وفي هَذهِ الأَثْناء بَدأَ في وَضعِ وَتأليفِ مُصَنَّفِهِ الشَّهيرِ «وَفياتِ الأَعيانِ».

وقَدْ سَاهَمَ كَثيراً كغيرِهِ مِنْ عُلماءِ القاهِرَةِ في تعبئَةِ الشَّعبِ المصريِّ على الخروجِ خلف قائِدِهِم السُّلطانِ قُطْز لمُلاقاةِ التَّتارِ في معركَةِ عَينِ جَالوت، وعِندَما توالت الأَحداثُ وتسَلَّمَ المَلِكُ الظَّاهِرُ بيبرس مقاليدَ الحُكمِ في مِصْرَ وبِلادِ الشَّامِ صَحِبَ ابْنُ خَلكان المَلِكَ الظَّاهِرَ في رحلتِهِ إلى دمَشْقَ ووَلَّاهُ الظَّاهِرُ مقاليدَ القضاءِ في الدِّيارِ الشَّاميَّةِ. وفي دِمَشْقَ عَكَفَ ابْنُ خلكانَ على إكمالِ مُصَنَّفِهِ «وفياتِ الأَعيانِ»، كَما عمِلَ في التَّدريسِ في مَدارِسِ دِمشقَ، إضَافَةً إلى قِيامِهِ بِأَعباءِ القضاءِ.

وعِندَما لَمَعَ نجمُه والتَفَّ النَّاسُ حولَهُ لِسماحَةِ نفسِهِ وعُذوبَةِ لسانِهِ، وسَعيهِ الدَّؤوبِ في رعايَةِ مَصالِحِهم، الأَمرُ الّذي أَوغَرَ صَدر وَزيرِ الدَّولةِ في دِمشقَ الوَزيرِ بَهاءِ الدِّينِ بْنِ حَنَّا، فَكادَ لابنِ خَلكانَ عِندَ الملكِ الظَّاهِرِ بِتهمَةِ أَنَّ ابْنَ خَلكانَ يَسْعَى بِما فيهِ اسْتهتارٌ وعَدَمُ احترامٍ لجانِبِ السُّلطانِ في قلوب النَّاس، فَاسْتَجَابَ المَلِكُ الظَّاهِر لِمَا دَبَّرَهُ ابْنُ حَنَّا، وأَصْدَرَ فَرمَاناً بِعَزلِ ابْنِ خَلكانَ مِنْ كُلِّ المَناصِبِ التِّي كانَ يَشْغلُها.

❁ ❁ ❁

عادَ ابْنُ خَلكانَ إِلى القاهِرَة مَرَّةً أُخرى، وعَمِلَ بِالتَّدريسِ في المدرسَةِ الفَخريَّةِ، وعَكَفَ عَلَى إِكمالِ فُصولِ كتابِهِ وفيَّات الأعيانِ، ثُمَّ لِسَبَبٍ (ما) أُعيدَ إِلى مَنصِبِ القضاءِ في دمشقَ مرَّةً أُخرى سَنَة (679) بَعْدَ وفاةِ المَلِكِ الظَّاهِرِ، وتولي ابْنِهِ المَلِكِ العَادِلِ المُلكَ بَعْدَ أَبيهِ. وفي دَمِشقَ حَفلَ أَهلُها بِعودَةِ قَاضِيهِم السَّمْحِ الّذي أَحَبوهُ وأَحَبَّهُمْ كثيراً، ولَمْ يَدُمِ الحَالُ طويلاً، فَما هِيَ إِلَّا أَشْهُر قليلَة حَتَّى استولَى السُّلطانُ قَلاوونُ على الحُكْمِ وصارَ حاكماً على مِصرَ وبلادِ الشَّام، ولَكِنَّ نائبَ السُّلطان في دمشق الأَميرَ سُنْقُر سرعانَ ما انْقَلَبَ على السُّلطانِ قَلاوونَ وأَعْلَنَ استقلالهُ عَنْهُ في دِمشقَ. كانَ يحدثُ كُلُّ ذَلِكَ وابْنُ خَلكانَ ما يزالُ عَلى رَأْسِ عَملِهِ، فَعَمَد الأَميرُ سُنقرُ إِلى إِسنادِ قَضاءِ الدِّيارِ الحَلبيَّةِ إِلى ابْنِ خَلكان أيضاً، فَكانَ مَسْؤولاً عَنِ الأَعمالِ القضائيَّةِ في دِمشق وحلب معاً، إِضَافةً إِلى التَّدريس في المدرسَةِ الأمينيَّةِ في دمشق. وَلكِنْ سرعانَ ما شَنَّ السُّلطانُ قَلاوونُ حَملةً عَسكريَةً كبيرةً واسْتَولى عَلى الحُكمِ مَرَّةً أُخرى في دِمشقَ، فَعَزل ابْنَ خَلكانَ مِنْ مَناصِبِهِ،

واعْتَقَلَهُ فَترةً مِنَ الزَّمَنِ، وَلكِنَّهُ أَطلقَ سَراحَه بَعْدَ أَنْ تَأَكدَ مِنْ نَزاهَتِهِ ووَرعِهِ وأَعادَهُ إِلى مَنْصِب القضاءِ في دمشق وحَلبَ مَعاً، ثُمَّ عَزَلَهُ مَرَّةً أُخْرَى لأَنَّ حُسادَهُ ومُناوئِيهِ لَمْ يَتركوهُ يَحصدُ النَّجاحَ إِثْرَ النَّجاحِ في حياتِهِ فَأَوغروا صَدرَ السُّلطانِ قَلاوونَ عليهِ.

فاعْتَزَلَ ابْنُ خَلكانَ السِّياسَةَ والقضاءَ ووظائِفَ الحُكومَةِ وعَكَفَ على التَّدريسِ في المدرسَةِ الأَمينيَّةِ، والمدرسَة النَّجيبيَّةِ في دمشق، ولَمْ يَزلْ يُدَرِّسُ حَتَّى وافَتْهُ المَنيَّةُ سَنةَ (681) هجريَّةً، ودُفِنَ في دِمَشقَ بِسَفحِ جَبلِ قاسيون عَنْ عُمرٍ نَاهَز ثلاثاً وسبعينَ سَنَةً، وكَانَ قد أَتَمَّ كتابَهُ «وفياتِ الأَعيانِ»، وكانَ هَذا كتابَهُ الوَحيدَ الّذي وَصَلنا، ولم يَذكُر المُؤَرخونَ أَنَّهُ أَلَّفَ غيرَهُ، لِأَنَّ كتابَ «وفياتِ الأَعيانِ» كان عِبارَة عَنْ موسوعةٍ مُعجمِيَّةٍ تَرْجَم فيه عَنْ حَياة (800) مِنْ عُلماءِ العَربِ والإِسلامِ الأَقْدَمينَ والمُعاصرين لَهُ.

وقَدْ جَمَعَ ابْنُ خلكانَ مادَّة هَذا الكتابِ مِنْ مَصادرَ كَثيرةٍ وَثيقَةٍ وصَحيحَةٍ، أو مِنْ خِلالِ مُلاقاتِهِ لِبعض العُلماءِ في إربلَ والموصِلِ وحَلبَ ودِمشْقَ والقَاهِرَةِ، فَأَتَتْ تَرجماتُهُ للعُلماءِ نَقيَّةً وصَحيحةً ونَادِرَةً، قَدْ وَفَّر الكثيرَ مِنَ الجُهْدِ والعَناءِ عَلَى البَاحِثين في تَاريخِ حَياةِ العُلماءِ الأَفاضِلِ الّذينَ أَغْنَوا الأُمَّةَ بِعلومِهِمْ ومَعارِفِهِمْ، فَكانَ مُعْجمُهُ هَذا مِنْ أَهَمِّ كُتُبِ التَّاريخِ والتراجِمِ الّتي جَادَت بِها مَكتَبةُ التَّاريخِ العَربي والإِسلاميِّ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ أينَ تَربَّى ابْنُ خَلكانَ؟

2 ـ كيفَ كانَتْ دولَةُ المَماليكِ في عَصرِ ابْنِ خَلكان؟

3 ـ كيف كانَ والِدُ ابْنِ خَلكانَ؟

4 ـ إلى ماذا سَعَى الملكُ كوكبوري في إربلَ؟

5 ـ بِمَن الْتَقَى ابْنُ خَلكانَ في حلبَ؟

6 ـ مَتَى بَدأَ ابْنُ خَلكانَ في تَأليفِ كِتابِهِ وفياتِ الأَعيانِ؟

7 ـ ما هي أَهمُّ الأَعمالِ الّتي قَامَ بِها ابْنُ خَلكان في دمشقَ؟

8 ـ ما هي أَهَميَّةُ كِتابِ وفياتِ الأَعيانِ؟

أبو عَبْدِ اللَّهِ المقدسيُّ
الرَّحالةُ الفقيهُ
(335 ـ 381هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

أَبو عبد اللهِ المقدسيُّ، الرَّحالَةُ الفقيهُ مِنَ العُلماءِ الذين رَحلوا في البُلدانِ والأَصْقاعِ في سَبيلِ العِلمِ والمَعرفَةِ، جَابَ وطافَ، عَبَر وأَقامَ، وشاهَدَ ووَصفَ ما رآهُ بِدِقَّةٍ وإِتْقانٍ. زارَ أَقاليمَ الأَرضِ المَعروفةِ في عَصرِهِ، ودوَّنَ مَعلوماتِهِ عَنْها في كتابِهِ الشَّهيرِ «أَحْسَنِ التَّقاسيم في مَعرفةِ الأَقاليمِ».

أَبو عَبْدِ اللهِ المقدسيُّ، الرَّحالةُ الفَقيهُ، الجُغرافيُّ الحَصيفُ واللَّبيبُ، الّذي حَرَصَ على أَنْ يكون بَحثُهُ في الجُغرافيا مبنيّاً على المُشاهَدَةِ والاخْتبارِ والتَّنظيمِ والتَّبويبِ والتَّفصيلِ، وبِأَنْ لا يكونَ مَنْهجُهُ في البَحثِ والتَّصنيفِ كَمنهجِ العُلماءِ الّذين سَبقوهُ ودَوَّنوا مُشاهداتِهِم عن الأَرضِ وأَقاليمِها وتضاريسِها اعْتِماداً عَلى ما حَكاهُ لَهُم الآخرونَ، أَو الّذينَ كَتبوا بِاختصارٍ لا يُفيدُ ولا يُغني الدَّارِسَ شَيئاً. وهُوَ وإِنْ كانَ في عَصرٍ لَمْ يَكُنْ فِيه عِلْمُ الجُغرافيا عِنْدَ العَربِ قد تبلوَرَ بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدَّمَ حقائقَ ومعلوماتٍ أَفادَتَ كَثيراً العُلماءَ

الّذينَ أَتوا بَعْدَهُ. ورُبَّما كانَتْ رِحْلَتُهُ الّتي اكتَشَفَ فيها مَجاهِلَ الأَرضِ والأَقاليمِ مرحَلَةً جَديدةً وهامَّةً مِنْ مَراحِلِ تَطوُّرُ عِلمِ الجُغرافيا عِنْدَ العَربِ والمُسلمينَ. . . هَذا التَّطورُ والازدهارُ في البَحثِ الجُغرافيِّ الّذي وَصَلَ إِلى نُضجِهِ على يدِ الشَّريفِ الإِدريسيِّ فيما بَعْدُ.

وعالمُنَا أَبو عَبْدِ اللهِ المقدسي، واجَهَ مِنَ المَشَقَّةِ والتَّعبِ والابتلاءِ في رحلتِهِ هَذِهِ ما لمْ يُلاقهِ رحَالةٌ جُغرافيٌّ آخَرُ وَلكِنَّهُ صَبَرَ وتجلَّدَ على ما يُلاقيهِ، لأَنَّه كانَ يَهدفُ إِلى وَضْعِ وتَصنيفِ شيء جَديد ومُفيد، كما تَحدَّث هُوَ عَنْ ذَلِكَ، بَلْ ليسَ مُفِيداً وحَسب وإِنَّما يُرضي اللهَ كَذلِكَ، فَهو إِذاً أَخَذَ بِمدلولِ الآيةِ القُرآنيةِ الّتي تَحضُّ على النّفيرِ والسَّعي في مفازاتِ الأرضِ مِنْ أَجْلِ العِلمِ والإِفادَةِ. . وهِيَ قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

يقولُ الشَّيخُ مُحمَّدُ الخُضْر حُسين في كِتابِهِ الرِّحلاتِ:

«ويَلحقُ بِالتَّفَقُّهِ بِالدِّينِ كُلُّ عِلمٍ يُعدُّ في وسائِلِ الرُّسوخِ في علومِ الدِّينِ كالنَّحو والبَلاغَةِ، بَلْ يلحقُ بِالتَّفَقُّهِ في الدِّينِ كُلُّ عِلمٍ يتوقَّفُ عليهِ استقلال الأُمَّةِ وسلامَتُها مِنْ أَيدي أَعدائِها».

ومِنْ هَذا المُنَطلقِ، خَرجَ المقدسيُّ يجوبُ في أَقاليمِ العالَمِ الإِسلاميِّ، بَحثاً عَنْ عِلمٍ جَديدٍ، وعَنْ معارفَ جُغرافيَّةٍ يُفيدُ بِها النَّاسَ كُلَّ النَّاسِ. فَعادَ مِنْ هَذهِ الرِّحلَةِ مُحَقِّقاً

أغراضاً ساميةً تَدورُ في فَلَكِ العِلمِ والإصلاحِ في الأَرضِ، ووَضَعَ كتابَهُ الجُغرافيَّ - «أَحْسَنَ التَّقاسيمِ» مُدَوِّناً فيهِ أَخبارَ رحلتِهِ، وذَكَرَ المُدنَ والبُلدان الّتي نَزَلَها، والجبالَ والمغاراتِ التي عبرها، والبِحارَ والأنهارَ الّتي شاهَدَها، ووَصَفَ السُّكانَ في الأقاليمِ وعاداتِهِم وما أَعْجَبَهُ منهم، كَما ذَكَر اَلصُّعوباتِ الّتي واجَهَها.

فَمَنْ هُوَ أَبو عَبْدِ اللهِ المقدسيُّ؟

❋ ❋ ❋

هُوَ أبو عبد اللهِ مُحمّدٌ بْنُ أَحمَدَ بْنِ أَبي بَكرٍ البنَّاءُ، وأَصْلُهُ عَربيٌّ مِنْ مَدينَةِ القُدسِ بِفلسطينَ، ولأَنَّهُ ولِدَ في القُدس سُمِّي بِالمَقدِسيِّ.

كانَ جَدُّهُ بَنَّاءً مَشْهوراً عَلى مُستوى العَالَمِ الإسلاميِّ والعرَبيِّ، وهُوَ الّذي بَنى ميناءَ عَكَّا وحائِطَها واسمُهُ مَكتوبٌ عليهِ.

ولِدَ أَبو عَبدِ اللهِ المَقْدِسيُّ في القُدسِ سَنةَ (325) هجريَّةً ونَشَأَ وترعرعَ فيها، وسَمِعَ مِنْ عُلمائِها الّذينَ كانوا يعقدونَ مجالِسَهُم العِلميَّةَ في مكَتباتها ومسَاجِدِها، كما كانَ المسجدُ الأَقْصى في القُدسِ مُلتَقى العُلماءِ الّذين يأتون مِنْ كافَّةِ أنحاءِ العالم الإسلاميِّ حينَها ويتطارحونَ علمَهُمْ ومعارِفَهُمْ في فنائِهِ على طلبةِ العِلمِ. ولَمْ يُفَوِّتْ أَبو عَبْدِ اللهِ المقدسيُّ على نَفْسِهِ مَنافِعَ وفوائِدَ هَذهِ المجالِسِ العلميَّةِ في المسجدِ الأَقْصَى، وخَاصَّةً أَنَّهُ كانَ ميالاً للعلمِ مُنذُ صِغَرِهِ.

عاشَ المقدسيُّ في القَرنِ الرَّابعِ الهِجريِّ، حَيْثُ كانتْ مَعارِفُ وَعُلومُ الحضارَةِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ تَغْزو الدُّنيا وتُداني الشَّمسَ وتُحاكي السَّماءَ.

وَما إنْ أَتمَّ المقدسيُّ الخامِسَةَ عشرةَ مِنْ عُمرهِ حَتَّى انْتَقَلَ للإقامَةِ في دِمشقَ مع أَسْرتِهِ. وفي دمشقَ التَقَى بكثيرٍ مِن العُلماءِ الّذينَ أَخذَ عَنهُم الحديثَ والفقهَ والتَّفسيرَ وعِلمَ القراءاتِ، فصارَ عالماً بِالقراءاتِ السَّبعِ ويقرأُ بِقراءَة ابْنِ عامرٍ، قراءَةِ أَهْلِ الشَّامِ.

وبَعْد عشرين سَنةٍ مِنْ إقامَتِهِ في دِمشقَ غادرها إلى العراقِ بَادئاً رِحلَتهُ المشرقيَّةَ، فَمَكثَ في بَغدادَ فترةً مِنَ الزَّمَنِ ينْهَلُ مِنْ علومِ فُقهائِها ومُحدثيها، كما ذاعَ صيتُهُ في العراقِ كعالِمٍ عارفٍ بِالقراءاتِ، وكقارئٍ بَارعٍ، كما مَكَّنَتْهُ إقامَتُهُ في العراقِ مِنْ مُخالَطَةِ أَهْلِ الطُّرقِ مِنَ المتصوفينَ والزُّهادِ، فسَلَكَ طَريقَهُمْ في خُشونَةِ العيشِ، والزُّهدِ بِالدُّنيا، وتَنقَّل في مُدنِ العِراقِ، وسَمِعَ مِنْ عُلماءِ كُلِّ مَدينةٍ أو بَلدةٍ نَزَلَها، كما طافَ بِمُدنِ فارس وبِلادِ السِّندِ فَزارَ شيرازَ وأَصبهانَ وبُخارى ونيسابور وجَرجانَ وسيرافَ. وقد ذكرَ في مقدمةِ كتابِهِ الشُّيوخَ والعُلماءَ الّذينَ سمِعَ مِنْهُمْ وروَى عَنْهُمْ، مِنْهُمْ:

أبو مُحمَّدٍ السِّيرافيُّ، والحاكِمُ أَبو نَصرٍ منصورُ بنُ مُحمَّدٍ الحَربيُّ مُحْتَسبُ بُخارى، وأَبو الفَضلِ بْنُ نَعامَةَ بِشيراز، والفقيهُ أبو عَبْدِ اللهِ في دِمشقَ، وأَبو عبد اللهِ مُحمَّد بْن أَحمد بِعصَبةِ أَرجانَ وأبو بكرٍ الإسماعيلي بِجَرجانَ، والفقيه أَبو عَبْدِ اللهِ مُحمَّد بْن عُمَر البُخاريُّ، والشَّيخُ العَدلُ أَحْمَدُ بْنُ مُحمَّد بنيسابور، ومُحمَّد بْن مَنصورٍ، وغسان الحكيم بأريحا، ومُسافِرٌ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصاريُّ وأَبي الطَّيِّبِ بْن غليون بِمصرَ.

❁ ❁ ❁

حَدَّدَ المَقدسيُّ في مُقَدِّمَةِ كتابِهِ الهَدَفَ والغايَة الّتي كانَ يَبْتَغيها مِنْ وراءِ رِحْلَتِهِ هَذهِ، وهي تَحقيقُ المَصلَحةِ والمَنْفَعَةِ العَامَّةِ لِلبَشريَّةِ الّتي يَجني مِنْ خلالِها مَرضاةَ رَبِّهِ ﷻ، وهَذا أَعلَى وأَعظَمُ مَقصدٍ مِنْ مَقاصِدِ الدِّينِ والشَّريعَة، كَما يُمَثِّلُ تعاليمَ ومَبادِئ الدِّينِ الحنيفِ التي تقومُ عَلى بُنيانِ العَملِ والسَّعي لتَحقيقِ السَّعادَةِ والخَيرِ في الحياةِ.

خَرجَ المَقدسيُّ ضَارباً وساعياً في أَرضِ اللهِ الواسِعَةِ على امتدادِ رُقعَةِ دولةِ العَربِ والإِسلامِ، ليُحَقِّقَ في حياتِهِ شَيئاً نَافعاً كما ذَكَرَ وقالَ:

«يحيي بِهِ ذِكْرَهُ، ويَنْفَعُ الخَلقَ، ويُرضي الرَّبَّ»، ولهذا وَجَدَ أَن هَدَفَهُ هَذا لا يُتمُّ ولا يَتَحقَّقُ إِلَّا بِإِتْمامِ ما بَدأَهُ مِنْ تَرحالٍ وسَفَرٍ في البِلادِ والأَصقاعِ، وخَتمِهِ بِتَصنيفِ كتابٍ يُحيي بِهِ ذِكرَهُ، ويَنفَعُ الخَلْق ويُرضي الرَّبَّ. فجاءَ كتابُهُ «أَحْسَن التَّقاسيمِ» تَحقيقاً لغايَتِهِ ومَسْعاه مِنْ رحلَتِهِ الطَّويلَةِ.

لَقَدْ شَاءَ المقدسيُّ أَنْ يكونَ كتابَهُ المَذكور، فَريداً في معلوماتِهِ، وغَنيّاً بِمادَّتِهِ العِلميَّةِ، وجَديداً في تبويبِهِ وتَرتيبِهِ، ومُتميِّزاً بِموضوعاتِهِ، ولِهذا لَمْ يَعْتَمِد المقدسيُّ عَلَى المعلوماتِ الّتي أَدْلَى بها سابقوهُ مِنَ العُلماءِ في كُتُبِهِم ومُصَنَّفاتِهِمْ، كَما لَمْ يَعتَمِدْ عَلَى ما يَرويهِ لَهُ النَّاسُ أو ما يحكيهِ لَهُ الآخرونَ، وإِنَّما اعتَمَدَ على مُشَاهداتِهِ وخُبراتِهِ الشَّخصيَّةِ في كُلِّ معلومَةٍ دوَّنَها وكَتَبَها عَنْ طَبيعَةِ البُلدانِ التي زارَها، والشُّعوبِ الَّتي رآها واحتكَّ بِها، لأَنَّهُ كانَ يَرى أَن عالم الجُغرافيا هُوَ الّذي يكتبُ ما يراهُ ويُشاهِدُهُ، ولَيْس هُوَ الّذي يكتبُ ما يرويهِ لَهُ الآخرونَ، والفَرقُ بين الجُغرافيِّ والرَّحالَةِ أَنَّ الأَوَّلَ يصِفُ ويُملي على

الآخرينَ ما شَاهَدَهُ بِنفسِهِ، وما رَآه بِتَجريته، أَمَّا الرَّحالةُ فَغَالباً ما يصِفُ ويكتُبُ ما أملاهُ الآخرونَ عليهِ، ولِهذا كَانَ المَقدسيُّ جُغرافيّاً وليسَ رحالَةً في كتابِهِ الّذي وَضَعَهُ.

❋ ❋ ❋

لَقَدْ كانَتْ رِحلَةُ المقدسيِّ شَاقَّةً وطويلةً، واسْتَغرَقَتْ زَمناً طويلاً أَيضاً، لِأَنَّ غالبَها كانَ في البَرِّ، كابَدَ خِلالَها حَرَّ الصَّيفِ، وبَردَ الشِّتاءِ، كَما جَاهَدَ نَفسَهُ عَلَى قطْعِ الصَّحارى، وتجاوزِ الوديانِ والجِبالِ، ورحلَتُهُ تُشْبِه إِلى حَدٍّ كبيرٍ رِحلَةَ ياقوت الحمويِّ، إِلَّا أَنَّ المَقدسيَّ رَحلَ إِلى المَغربِ زيادةً على رِحلَةِ ياقوت الحمويِّ، فَطافَ وجالَ في جميعِ أَنحاءِ المَمالِكِ الإِسلاميَّةِ مِنْ أَقْصَى المَغربِ إِلى أَقْصَى المَشرقِ، ومِنْ أَقصى المَشرقِ إِلى أَقْصَى المَغربِ، كَما دَخَلَ القِسْطنطينيَّةَ ورحَلَ عَنْها إِلى جنوبي الجَزيرةِ العَربيَّةِ كَما قالَ:

«ولَمْ يبقَ إِقليمٌ إِلَّا دَخلناهُ عَدَا الأَنْدَلُس» وقَدْ حَرصَ المَقدسيُّ أَن يُسجِّلَ مُشاهداتِهِ ومُلاحَظاتِهِ في كُلِّ مَكانٍ يحلُّ فيهِ، وفي كُلِّ مفازةٍ يقطعُها، وفي كُلِّ جَبَلٍ أَو واد يَمرُّ فيهِ، أَو في كُلِّ نهرٍ أَو بَحرٍ يَعبُرهُ، كما دوَّنَ اجتماعاتِهِ ولقاءَاتِهِ بِالنَّاسِ عَلَى اختلافِ طبقاتِهِمْ ومَذاهِبِهِمْ ومَشارِبِهِمْ، وسَجَّلَ ما لقيَهُ مِنْ مُعاناةٍ ومَشَقَّةٍ وتَعَبٍ وصعوباتٍ، فَهو يقولُ في كِتابِهِ:

«ولَمْ يَبْقَ شيءٌ مِمَّا يلحقُ المُسافرينَ إِلَّا وقَدْ أَخَذْتُ مِنْهُ نصيباً إلا ارتكاب الكَبيرةِ».

كَما لَمْ يَتوانَ المقدسيُّ أَثناءَ رِحلَتِهِ أَنْ يقومَ بِبَعضِ الأَعمالِ الّتي أُسْنِدَتْ إِليهِ مِنْ بَعضِ الملوكِ، فتولَّى الحِسْبَةَ في بَعضِ البُلدانِ، كَما اجْتَمَعَ بِبَعضِ الملوكِ ودَخَلَ قصورهُمْ،

واطَّلَعَ على خَزائِنِ كُتُبِهِمْ، وعَمِلَ في تجليدِ الكُتبِ في إِحدى البُلدانِ أَيضاً، وقَدْ ذَكَرَ كُلَّ ذَلِكَ في كتابِهِ فقال:

«وفَقَّهْتُ، وأَدَّبتُ، وخَطَبْتُ عَلى المنابِرِ، وأَذَّنْتُ عَلى المنائِرِ، وأَقَمْتُ في المساجِدِ، وذَكرتُ في الجَوامِعِ، واختلفت إِلى المدارس، ودعوتُ في المحافِلِ، وتَكلَّمتُ في المجالِسِ، وأَكلتُ مَع الصُّوفيَّةِ الهرائِسَ، ومَعَ أَصحابِ الخانقاه مِنَ الثَّرائِدِ، ومَعَ النّواتي العصائِدَ، وطُرِدْتُ في الليلِ مِنَ المساجدِ، وسُحتُ في البَراري، وتُهتُ في الصَّحارى، وصَدَقتُ في الوَرعِ زَماناً، وأَكلتُ اللَّحمَ عياناً، وصَحبتُ عُبَّادَ جَبَلِ لُبنانَ، وخالطتُ حيناً السُّلطانَ، ونَزلتُ في عَرصَةِ الملوكِ بينَ الأَجلَّةِ، وسَكَنْتُ بينَ الجُهَّالِ في محلَّةِ الحاكَةِ، وكَمْ نلتُ العِزَّ والرِّفعةَ، ودُبِّر قتلي غيرَ مَرَّةٍ، وحَججتُ وجَاوَرتُ، وغَزَوتُ ورَابَطْتُ».

❋ ❋ ❋

بَعْدَ كُلِّ هَذا العناءِ الّذي عاناهُ المقدسيُّ مِنْ رحلَتِهِ الطَّويلَةِ، استطاعَ أَنْ يَضَعَ كتابَهُ المُسمَّى بِـ: «أَحسَنِ التَّقاسيمِ في معرفَةِ الأَقاليمِ»، الّذي كانَ مرآةً واضحةً للعالَمِ الإِسلاميِّ مِنْ مَشرقِهِ إِلى مغربه، ومن شمالِهِ إِلى جنوبِهِ في القَرنِ الرابعِ الهجريِّ.

وكمثالٍ عَنْ ذَلِكَ لِنَسمعهُ يتحدَّثُ عَنْ مُشاهداتِهِ:

«ورأيتُ أَنْ أَقصِدَ علماً قد أَغفلوهُ، وأنفردُ بِفَنٍّ لَمْ يَذكروهُ إِلَّا عَلَى الإِخلالِ، وهو ذكرُ الأَقاليمِ الإِسلاميَّةِ وما فيها مِنَ المفاوِزِ والبحارِ والبُحيراتِ والأَنْهارِ، ووَصْف أَمصارِها المشهورَةِ، ومُدنِها المَذكورةِ، ومنازِلِها المسلوكةِ، وطُرقِها المُستعمَلةِ، وعناقير الآلاتِ

والعقاقيرِ، ومعادن الحملِ والتِّجاراتِ، واختلاف أَهْلِ البَلدِ في كلامِهِمْ وأَصواتِهِمْ، وأَلسنَتِهِمْ وأَلوانِهِمْ، ومذاهبِهِمْ ومكاييلِهِمْ وأَوزانِهِمْ، ونقودِهِمْ وصروفِهِمْ، وصِفَة طعامِهِمْ وشرابهِمْ وثمارِهِمْ ومياهِهِمْ، ومعرفَة مفاخِرِهِمْ وعيوبِهِمْ، وما يُحملُ مِنْ عِندهم وإِليهِمْ، وذكر السِّباخِ والصِّلابِ والرِّمالِ والسُّهولِ والجبالِ، والممالِكِ والحدودِ والمصادرِ والجروم، والمحاليفِ والزُّمومِ، والطَّساسيجِ والنُّجُومِ، والصَّنائِعِ والعلومِ، والمباخسِ والمشاجِرِ والمناسكِ والمشاعرِ...».

ولَقَد اعتَمدَ المقدسيُّ في تأَليفِ كتابِهِ على عِدَّةِ أُسسٍ، نَذكُرُ مِنْها:

أَوَّلاً: سُؤالُ ذوي العقولِ مِنَ النَّاس: فَكانَ يَسأَلُ ذوي الخبرةِ مِنْ أَهْلِ المكانِ أو البلَدِ عَمَّا اسْتَشكَلَ عليهِ مَعرفَتُهُ أو ضَاق عليهِ فهمُهُ، وكانَ يشيرُ إِلى ذَلِك في كتابِهِ بقولِهِ «زَعموا... أو قالوا لي..، أَو حَدَّثوني».

ثانياً: ذِكرُ ما رآهُ وما حكاهُ وما سَمِعَهُ: فَكانَ يَذكُرُ مُشاهداتِهِ وما صَحَّ لَهُ بِالمعايَنَةِ مِنَ الأَخبارِ.

ثالثاً: إِضافَة ما وجَدهُ في خَزائنِ الملوكِ مِنْ معلوماتٍ في الكُتب والمصُنَّفاتِ.

رابعاً: كانَ لا ينقلُ شيئاً عَنْ غيرِهِ إِلَّا عِنْدَ الضَّرورَةِ القُصوى والحاجَةِ المُلحَّةِ.

توفي المقدسي سنة (381) هجريَّةً، ولم يذكر المُؤَرخونَ مكانَ وفاتِهِ ودفنِهِ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ عَلى ماذا حَرصَ المقدسيُّ؟

2 ـ منْ أَيِّ مُنطلَقٍ خَرجَ المقدسيُّ في رحلتِهِ؟

3 ـ ماذا دَوَّنَ المقدسيُّ في كتابِهِ «أحسنِ التَّقاسيم»؟

4 ـ ماذا كانَ يعملُ جَدُّ المقدسيِّ، وماذا أَشادَ؟

5 ـ ماذا مكَّنَت المقدسيَّ إِقامتُه في العراقِ؟

6 ـ ماذا كانَ هَدفُ المقدسيِّ مِنْ رحلتِهِ وغايتُهُ؟

7 ـ ما هي الأَقاليمُ الّتي زارَها المقدسيُّ؟

8 ـ ما هي الأَعمالُ الّتي أُسْنِدَتْ إلى المقدسيِّ أثناءَ رحلتِهِ؟

وَليُّ الدِّينِ بْنُ خَلدونَ
المُؤَرِّخُ الفَيلسوفُ
(732 ـ 808هـ)

أَعَزّائي وأَحِبَّائي:

وَليُّ الدِّينِ بْنُ خُلدونَ، المُؤَرخُ الفيلسوفُ، ورَائِدُ فَلسَفةِ التَّاريخِ، والعبقريُّ المُخَضْرَمُ الّذي اتَّسَمَتْ مَعارفُهُ وعلومُهُ بِسعةِ الاطِّلاعِ، وبِدِقَّةِ النَّظَرِ، وبِغَزارَةِ العِلمِ، اتَّسَمَ مَنْهجُهُ العِلميُّ بِالتَّوفيقِ بَيْنَ العَقلِ والنَّقلِ، وبَينَ العِلمِ والوَحِي، وبينَ الشَّريعَةِ والحِكمةِ.

هَوَ مُفكِّرٌ وفَيلسوفٌ وَمُؤرِّخٌ وعَالِمُ اجتماع، وجُغرافيٌّ، وسِياسيٌّ لامِعٌ، كُلُّ ذَلِكَ اجتمَعَ في شَخصيَّتِهِ العِلميَّةِ، بلْ لا نُغالي إذا قُلنا عَنْهُ بِأَنَّهُ كَانَ يُمثِّلُ العِلمَ بِكُلِّ فُروعِهِ واختصاصاتِهِ، بَلْ هُوَ العِلمُ مُتَمثِّلاً بِرَجُلٍ. ولا يَخْفَى على العَاقِلِ البَّصيرِ تَأْثيرُ ابْنِ خَلدونَ على الفكرِ الأُوربيِّ، وعَلَى ارتقاءِ العِلمِ وازْدِهارِهِ فيما يَخصُّ عِلْم الاجتماع، والتَّاريخِ، والمعارف الجُغرافيَّة، والعُلوم النَّظريَّة الأُخْرى.

وَليُّ الدِّينِ بْنُ خَلدونَ الّذي سَارَتْ بِمعارِفِهِ الرُّكبانُ في عَصرِهِ، وفي العُصورِ الّتي تَلتْهُ حَتَّى عَصرِنا هَذا، قَدْ تحمَّل مِنْ عَناءِ الحياةِ، ومِنْ صُروفِ الزَّمانِ، ومِنْ عُسْفِ الحُكَّامِ

مِنْ أَجْلِ أَنْ يَهبَ العِلمَ والمعرفَةَ لِلآخرينَ، هُوَ جَديرٌ بِأَنْ يَكونَ أَهَمَّ مُفَكِّرٍ وعالِمٍ جَادَتْ بِهِ الحضَارَةُ العربيَّةُ الإِسلاميَّةُ، كَما اعْترفَ بِذَلِكَ عُلماءُ الغَربِ ومُفكروهُ، وَفَوقَ ذَلِكَ وذاكَ، هُوَ مُفكِّرٌ مُتَّزِنٌ، لا يَحيدُ عَن الحَقِّ، ولا يَحرفُهُ الهَوى عَنْ تَوَخي الحقيقَةِ، ولَمْ تَلوِ بِهِ صِراعاتُ الحَياةِ الّتي وَقَفَتْ حَجَرَ عثرةٍ في طريقِهِ وسَعيهِ نَحو العِلمِ والمَعرفَةِ، لأَنَّهُ كانَ يُؤمِنُ إِيماناً عميقاً بِأَنَّ مهمَّةَ العالِمِ والمُفكِّر لا تَقِفُ عِنْدَ حَدِّ حِفظِ المعلوماتِ والمَعارفِ وتَرديدِها، وإِنَّما مهمَّةُ العَالِمِ تنويرُ العقولِ، وحَفْزُ هِمَمِ أَبناءِ المُجْتَمعِ الّذي يَعيشُ فيهِ نَحْوَ التَّغييرِ وإِصلاحِ الحياةِ والمَعاشِ، ومُواجَهة الظُّلمِ والاسْتبدادِ بِالتَّعليمِ وَالتَّثقيفِ، والعَمَلُ بِمُقتَضَى العَقلِ والحَقِّ.

ولِهذا كانَ إِنتاجُ ابْنِ خَلدونَ العِلميُّ، مُتأَثِّراً بِآرَائِهِ ومَبادِئِهِ الّتي آمَنَ بِها، وسَعَى إِلى تحقيقِها في الحياة، فَهْوَ يتميَّزُ عَنْ غيرِهِ مِنَ العُلماءِ والمُؤَرخينَ بِفكرِهِ الحَيِّ، وقد اهتمَّ بِالبَحثِ عَنْ عِلَلِ وأَسبابِ الأَحداثِ والوَقائِعِ التَّاريخيَّةِ، ولَمْ يَدرُسْها مِنْ حيثُ زَمان وَمكان حُدوثِها، وإِنَّما اكْتشَفَ قَوانينَ حُدوثِها والعَوامِلَ المؤثرةَ بِها، وأَعْطَى عِلمَ التَّاريخِ أَبعاداً جَديدةً، وميادين لَمْ تكَنْ مَطروقَةً مِنْ قبل، وأَمَاطَ اللِّثامَ عَنْ حَقائقَ هامَّةٍ وَضَعَت الأَسُسَ الأُولى لِلَمنهجِ العِلميِّ في الأَبحاثِ التَّاريخيَّةِ.

هذهِ الثَقافَةُ الموسوعيَّةُ المُتَأَلِّقَةُ الّتي حَواها ابْنُ خَلدونَ في شَخصِهِ، هي نتيجةُ بَحثٍ واطِّلاعٍ وسَهَرٍ وَاجتهادٍ وتَحمُّل لِوَعْثاءِ السَّفرِ اسْتَّمرَ زَهاءَ نِصْفَ قَرنٍ مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى تَمخَّضَ عَنْها إِنتاجُهُ العِلميُّ، ومُؤَلفاتُهُ الهَامَّةُ في التَّاريخِ والعُمرانِ البَشري، الّتي أَغنَت الفِكرَ الإِنْسانيَّ بِروافِدَ جَديدةٍ لَمْ تَنضَبْ كُنوزُها إِلى يَومِنا هَذا.

فَمَنْ هُوَ وَليُّ الدِّينِ بْنُ خَلدونَ؟

❋ ❋ ❋

هُوَ أَبو زَيدٍ عَبْدُ الرَّحمنِ بْنُ مُحمَّدٍ بْنِ مُحمَّدٍ بْنِ خَالِدِ الخَطَّابِ الكَنديِّ الحَضرميِّ المُلَقَّبُ بِوَليِّ الدِّينِ، المَعروفُ بِابْنِ خَلدونَ نسبَةً إِلى جَدِّه الأَكبرِ ابْنِ خَلدونَ الأَندَلُسيِّ.

فَوَليُّ الدِّينِ بْنُ خَلدونَ ينتسبُ إِلى أُسْرَةٍ عَربيَّةٍ أَصيلةٍ مَنسوبَةٍ إِلى عَرَبِ اليَمنِ في حَضَرموتَ.

فَلمَّا فَتَح العَربُ المُسْلمونَ الأَندلُسَ بقيادَةِ طارقِ بْنِ زياد ثمَّ بِقيادَة مُوسَى بْنِ نُصيرٍ بَعْدَهُ، كَانَ مِنْ بينِ قُوَّادِ جُيوشِ الفَتحِ، رَجُلٌ يمنيٌّ مِنْ أَجنادِ اليَمنِ أو اليمانيَةِ ـ كما كَانَ يُطْلَقُ وَقتها ـ مَعروفٌ بِالحِكمَةِ وسَدادِ الرَّأي اسْمُهُ «خالِدُ بْنُ الخَطَّابِ»، سَكَن في مدينَةِ «قرموتَةَ» ثُمَّ انْتَقَلَ للعيشِ مَعَ أَفرادِ أُسرتِهِ في مَدينَةِ إِشبيليَّةَ واشتُهِرَ فيها كواحدٍ مِنْ أَعيانِ القَوم، ومِنْ أَفْضَلِهِمْ مَنْزِلَةً، ولَمَّا كانَ مِنْ عادَةِ العَربِ أَنْ تُضيفَ إِلى الاسمِ واواً ونُوناً للدِّلالَةِ على مكانَةِ المُسَمَّى الرَّفيعَةِ أُطْلِق عَلى خَالِد بْنِ الخَطَّابِ ابْنَ خَلدونَ.

وكانَ لِأُسرَةِ ابْنِ خَلدونَ وأَحفادِهِ مكانَةٌ وهيبةٌ عِنْدَ عَربِ الأَنْدَلس، وحِظوَةٌ عِنْدَ حُكَّامِهم، وبِشَكلٍ خاصٍّ عند «بنِي الأَحمر» الّذين حَكموا قِطاعاً كبيراً منْ بِلادِ الأَنْدَلُسِ.

وعِنْدَما توالَى الخَطَرُ الإِسْبانيُّ عَلى العَربِ في الأَنْدلُسِ نتيجةَ ضَعْفِ العَربِ والمُسلمينَ وتفكُّكِهِمْ، هَجَرَ آلُ الخَطَّاب المَعروفُ بِآلِ ابْنِ خَلدونَ إِلى بِلادِ المَغربِ الأَقصى، وسَكنوا في مَدينة «سبتَةَ» على السَّاحِلِ الغربيِّ المُحاذي لِسَواحِلِ بِلادِ الأَنْدلُسِ.

ومَعَ الأَيام نَزَحَ قِسمٌ مِنْهُمْ إِلى تونُسَ الخَضراءِ، وسكنوا في مدينة تُونُسَ عاصِمَة البِلادِ حالياً.

فَقَدْ وُلِدَ وَليُّ الدِّينِ عَبدُ الرَّحمَنِ بْنُ خلدونَ في تُونُسَ عام (732) هجريَّةً في بَيْتِ عِلمٍ وأدبٍ ودينٍ، حَيْثُ كان والِدهُ مُحمَّدُ بن محمَّدٍ الكنديُّ الحَضرميُّ مِنْ عُلماءِ وفُقهاءِ مَدينة تُونُسَ، فَتَلقَّى عِلمَهُ في بِدايَةِ حياتِهِ على يَدِ أَبيه، وعَلَى نَفرٍ مِنْ عُلماءِ تُونُسَ، فحفظَ القُرآنَ، ودَرسَ عُلومَ الفِقهِ والتَّفسير واللُّغَة والنَّحوِ، ثُمَّ توسَّعَ في طَلبِ العِلم وبَرع في الأَدبِ والمنطقِ والفَلسفَةِ، ورَحلَ إِلى مَدينةِ فَاس وأَخَذَ عَنْ بَعضِ عُلمَائِها المَشهورينَ، الّذينَ أَجازوهُ، ثُمَّ انتَقَلَ مِنْ فاس إلى مَدينةِ تَلمسانَ وبِجايَة في الجزائِرِ وطاب لَهُ المقامُ في الجَزائرِ.

اسْتَدعاهُ سُلطان فاس «أَبو عنانِ المريني» مُنْشِئُ الدُّولةِ المَرينيَّهِ في بلادِ المَغربِ آنَذاك، وضَمَّهُ إِلى رُوَّادِ مَجلسِهِ العَلميِّ، وأَسْنَدَ إِليهِ بَعضَ الأَعمالِ الإداريَّةِ في الدَّولةِ سنة (765) هجريَّةً، وَلكِنَّه لَمْ تُعجِبْهُ الإقامَةَ في فَاس، رُبَّما لِأَنَّهُ دَاخَلَ نَفسَهُ بَعضُ الكُرهِ لأَداءِ الدَّولةِ المَرينيَّةِ، فَاهْتَبَل إِحدى الفُرَصِ، ونَزحَ إِلى بِلادِ الأَنْدلُسِ الّتي كانَ يتوقُ إِلى زيارَتِها والتَّعرفِ عَلى علمائِها الّذينَ طارَ ذِكرُهُمْ في الآفاقِ، وحَظِيَ فيها بِمنزلةٍ رفيعَةٍ، ولَقيَ حَفاوَةً كبيرةً مِنْ قبلِ الأَمِيرِ «أَبي عَبْدِ اللهِ» ثَالِثِ ملوكِ بَني الأَحمرِ في الأَندلُسِ.

ولَكِنْ سرعانَ ما دَعاه أَحَدُ حُكَّامِ المَغربِ، فَقَفلَ راجعاً مِنَ بِلادِ الأَندلسِ، وأَقامَ في

مدينة بجايَةَ وتَولَّى وظيفةَ الحِسْبَةِ والحجابَةِ، وهي أَرْفَعُ مَنصِب في الدَّولَة، وتعادِلُ في زَمانِنا هَذا مَنصِبَ رَئيس الوزراءِ.

ولأنَّ ابْنَ خلدونَ يَتمتَّعُ بِنفسٍ زكيَّةٍ، ويتحلَّى بِعلمٍ زاخرٍ قَرَّرَ عَدمَ التَّعاونِ مَعَ الحُكَّامِ المُسْتَبدينَ، وعَدَمَ قُبولِ أَيِّ مَنصبٍ في دَولَتِهِم التي تقومُ عَلى الظُّلمِ والعُدوانِ والإرهابِ.

❋ ❋ ❋

عِنْدما اضطَربَ الأمنُ في بِجايَةَ وهَاجَ النَّاسُ وماجُوا اتُّهِمَ ابْنُ خَلدونَ بمُساندَةِ الثَّورةِ الشَّعبيَّةِ التي كانَتْ عَلى وشكِ النُّشوبِ، وكادَتْ أَنْ تُفلِحَ في إِسقاطِ لِواءِ الحاكِمِ المُسْتَبِدِّ، ولِهذا اعْتُقِلَ ابن خَلدونَ ثُمَّ تَمَكَّنَ مِنَ الفَرارِ إِلى مدينةِ «مسكرة» وأَقام فيها عِدَّة سَنواتٍ وهو يَبُثُّ عِلمَهُ بينَ النَّاسِ.

عندَما ضَاق ابْنُ خلَدونَ ذَرْعاً مِنَ الإِقامَةِ في مَنفاه، غادرَ «مسكرة» وقَصَدَ مدينةَ فَاس، ودَأَبَ فيها على الانخراطِ في صفوفِ العلماءِ المُعارِضين ـ بَلْ كانَ في مُقدمتِهِمْ ـ لأَداءِ السَّلاطينِ والأُمراءِ في سياسَةِ البِلادِ والعبادِ، وكانَ لِدَعوةِ ابْنِ خلدونَ وآرائِهِ الجَريئَةِ في إِسقاط حكم الاستبدادِ سُلْطان في نفوس العَامَّةِ، فَلوحِقَ مِنْ قِبَلِ الحُكَّامِ وَأعوانِهِمْ، وقَبْلَ أَنْ تطالَهُ أَيدي الجلَّادينَ، رحلَ إِلى الأَندلُسِ مَرَّةً أُخْرى وأَقامَ في مدينَةِ غُرناطَةَ، ثُمَّ وَجَدَ نفسَهُ مُضطَّراً للعودَةِ إِلى بِلادِ المغربِ، واعْتَصَمَ في قصرٍ من قصورِ بَني عَريفٍ في قلَعةِ «ابْنِ سَلامَةَ» جنوبي مدينَةِ قُسْطَنطينيَةَ في الجزائر، وفيها اعْتَزَلَ النَّاسَ والعَملَ السِّياسيَّ بيْنَ أُناسٍ رَضوا بِالذُّلِّ والهَوانِ تَحتَ ظِلِّ حُكمِ المُسْتَبدِّينَ.

عَكَف ابْنُ خَلدونَ في قَصْرِ بَني عَريف عَلى المطالَعةِ والبَحثِ والتَّأْليفِ، وتمكَّنَ مِنَ البدء في وَضْعِ كِتابِهِ الشَّهيرِ والثَّمينِ «كتاب العِبرِ وديوان المُبتدأ والخَبَر» وقَدَّمَ لَهُ بِمُجمَلِ آرائِهِ الاجتماعيَّةِ والفلسفيَّةِ، وأُضيفَ إليهِ الجِزْء الأَوَّل مِنْ هَذا الكِتابِ، وعُرِفَ ذَلِكَ بِاسمِ «المُقدِّمَةِ» الشَّهيرةِ.

وبعد مُضيِّ وَقتٍ طويلٍ مِنْ إقامَتِهِ في قَصْرِ بَني عريف راوَدَهُ الحَنينُ إلى بَلدِهِ ومَسْقَطِ رَأسِهِ مدينَةِ تونُسَ، فَرَحلَ إليها، وأَقامَ فيها فَترَةً مِنَ الزَّمَن مُحاطاً خِلالَها مِنْ قِبَلِ حاكِمِها بِالحفَاوةِ والتَّبجيلِ، وأُسْنِدَ إليهِ بَعضُ الأعمالِ الحكوميَّةِ الهامَّةِ، ولَكِنَّ ابْنَ خَلدونَ مَلَّ مِنْ صُحبَةِ الحُكَّامِ الَّذينَ يقولونَ ما لا يَفعلونَ، ودَاخَلَ نَفسَهُ المَلَلُ والاشمئزازُ كَذَلكَ مِنَ السِّياسَةِ وأَهلِها، وخَرجَ مِنْ تونُسَ مُتظاهِراً أَمامَ الحاكِمِ بِالحجِّ إلى الدِّيارِ المُقدَّسَةِ في مَكةَ، وَلكِنَّهُ نَزَلَ مِصْرَ واسْتَوطَنَ فيها، وحَجَّ فيما بَعْدُ.

❋ ❋ ❋

وفي مِصْرَ أُحيطَ ابْنُ خلدون بِالإكرامِ والتَّرحيبِ مِنْ قِبَلِ عُلمائِها وأَهلِها، وأَنزلوهُ مَنزلاً رفيعاً بَينَهُمْ، فَاسْتَوطَنَ في مَدينَةِ القَاهِرَةِ، وشَرعَ في إلقاءِ دُروسِهِ العلميَّةِ في الجامِعِ الأَزْهَرِ، فَأَبْهَرتْ علومُهُ ومعارفُهُ عُقولَ المَصريِّينَ، فَطفِقُوا يَتَدفَّقونَ إلى مَجلسِهِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ.

وفي القاهِرَةِ اتَّصَلَ بِالمَلكِ الظَّاهِرِ بَرقوق الّذي أَكرمَ وِفادَتَهُ، وأَبْدَى مَعَهُ تَعاطُفاً عظيماً، خاصَّةً بَعْدَ أَنْ غرقَ أَهْلُهُ وبَنوهُ في السفينَةِ وسطَ البَحرِ عِندما دَعاهُمْ للإقامةِ في

مِصْرَ. فَقدَّرَ المَلِكُ الظَّاهِرُ بَرقوقُ لابْنِ خَلدونَ هَذا المَصابَ الجلَلَ الّذي مُني بِهِ مِنْ أَجْلِ مَحبَّتِهِ لِمصْرَ وأَهْلِها، فَقَلَّدَهُ مَنْصِبَ قَاضي قُضاةِ المالكيَّةِ في مِصْرَ كُلِّها.

وعِندَما اجتاحَت جحافِلُ الغَزوِ المَغولي بقيادة «تيمورلنكَ» بِلادَ الشَّامِ، خَرَجَ ابْنُ خَلدونَ بِصُحبَةِ الملكِ النَّاصِرِ بْنِ الظَّاهرِ بَرقوق عِندما أَزمَعَ هَذا الأخيرُ على الخروجِ بِجَيشِهِ إِلى الشَّامِ لملاقاةِ «تيمورْلَنك»، ولَكِنْ عِندما وَصلوا إِلى هُناكَ وَجَدوا أَن المغولَ قد أَحكموا سيطرتَهُمْ على دمشْق، وخِلالَ اللَّيل داهَمتْ جيوشُ المَغولِ مُعسَكر المصريِّينَ على مَقْرُبَةٍ مِنْ دِمشقَ، فاستطاعَ المَلكُ النَّاصِرُ العودَة إِلى مِصرَ، بينما وقعَ ابْنُ خلدونَ في الأَسْرِ.

وعِنْدَما التَقَى ابْنُ خَلدونَ بِالقائِدِ المَغولي تيمورلَنْكَ أطلَقَ سَراحَهُ وأَسْنَدَ إِليهِ قضاءَ دِمشقَ، بَعْدَ أَنْ أُعْجِبَ بعلمه ومَعارِفِهِ الواسِعَةِ، فَأقام ابْنُ خَلدونَ فَترةً يُلقي عَلَى النَّاسِ عِلمَهُ ومعارفَهُ، وَلكِنَّهُ كَعادَتِهِ في عَدَمِ الولاءِ لِلطُّغاةِ والمُستبدِّين، تَظَاهَرَ أَمامَ تيمورلنكَ بِالسَّفَرِ إِلى القَاهرةِ لِاستقدامِ وجَلبِ كُتُبِهِ، وعِندما وَصَلَ القَاهِرَةَ بَقيَ فيها مُواظِباً على إِلقاءِ الدُّروسِ في الجامعِ الأَزهَرِ، وعاكفاً على التَّأَليفِ والتَّصنيفِ حَتَّى أَدرَكَتْهُ الوفاةُ سَنةَ (808) هجريَّةً، ودُفنَ بِالقاهِرَةِ، ولا يَزال قبرهُ مَعروفاً فيها إِلى يومنا هذا.

❋ ❋ ❋

عُرفَ ابْنُ خَلدونَ على مُستوى العالَمِ أَجمَع على أَنَّهُ عَلَمٌ مِنْ أَعلامِ الفِكْرِ العَربيِّ والإِسلاميِّ الموهوبينَ والنَّادرينَ، وبِأَنَّهُ مِنْ عِظامِ الرُّوادِ العُلماءِ الّذينَ بَرعوا في عُلومِ

التَّاريخ والجُغرافيا والعُمرانِ البَشريِّ، والاجتماع الإِنْسانيِّ، وفي تاريخ الفِكرِ الإنسانيِّ عَامَّةً.

وهُوَ أَوَّلُ مَنْ وضَعَ الأُسُسَ الأُولى لِعلمِ الاجتماع ولعلمِ العُمرانِ البشري الّذي يَبْحثُ في نُشوءِ المُجتمعاتِ الإِنسانيَّةِ والقوانينِ الّتي تَتحكَّمُ في نشوئِها وازدِهارِها، وسُقوطها.

كَما يُعتَبرُ وَاضِع حَجَر الأَساسِ لِمَا يُعرَفُ بِعلمِ فَلسَفَةِ التَّاريخِ، وعَرَّفَ عِلمَ التَّاريخِ تعريفاً جَديداً لَمْ يَكُنْ معروفاً لَدَى أسلافِهِ مِنَ العُلماءِ والمفكرين.

يقولُ ابْنُ خلدونَ في تعريفِ عِلمِ التَّاريخ:

«أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّ فَنَّ التَّاريخِ مِنَ الفُنونِ الّتي تتداوَلُهُ الأُمَمُ والأَجيالُ، وتَشدُّ إِليهِ الرَّكائبُ والرِّحالُ، وتَسمو إِلى مَعْرِفَتِهِ السَّوقَةُ والأَغفالُ، وتتنافَسُ فيهِ الملوكُ والأَقيالُ، وتَتَساوى في فَهمِهِ العُلماءُ والجُهَّالُ، إِذْ هُوَ في ظاهِرِهِ لا يَزيدُ عَلى إِخبارٍ عَنِ الأَيَّامِ والدُّولِ، وفي باطِنِهِ نَظَرٌ وتحقيقٌ وتعليلٌ للكائناتِ ومبادئِها، وتدقيقٌ وعِلمٌ بكيفياتِ الوَقائِعِ وأَسبابِها عميقٌ، فَهوَ لِذَلِكَ أَصيلٌ في الحِكمةِ عريقٌ».

ولِهَذا أَعَلى مِنْ شَأنِهِ علماءُ الغَربِ المعاصِرون، مُعترفين له بَيدِ السَّبقِ في مضمارِ عِلمِ فلسفَةِ التَّاريخِ والاجتماع البَشريِّ، قالَ عَنْهُ «روبرت فلنَت» عندما قرأ كتابَهُ «المُقدِّمةَ»:

«إِنَّ مَنْ يَقرأُ المُقدِّمَةَ بِإخلاصٍ ونزاهَةٍ، لا يستطيعُ إِلَّا أَنْ يعترفَ بِأنَّ ابْنَ خَلدونَ يسْتحِقُّ لقَبَ مُؤَسِّسِ علم الاجتماع وفَلسفَتِهِ».

أمّا «تونيبي» الأُستاذُ بِجامِعَةِ أكسفورد في كتابِهِ «دراسَة في التَّاريخ» فيعدُّ ابْنَ خلدونَ

مِنَ العباقِرَةِ، ويرى في مُقدمَتِهِ دَلائِلَ ساطِعَةً، عَلى سَعَةِ النظرِ، وعُمقِ البحثِ، وقُوَّةِ التَّفكيرِ، ويُتابِعُ أَحكامَهُ في ابْنِ خلدونَ فيقولُ:

«إِنَّ ابْنَ خلدونَ ـ في المُقدِّمَةِ الّتي كَتَبَها لتاريخِهِ العامِّ ـ قَدْ أَدركَ وتصوَّرَ وأَنْشَأَ فَلسفَةَ التَّاريخِ، وهو بِلا شَك أعظمُ عَملٍ مِنْ نوعِهِ خَلقَهُ أَيُّ عَقلٍ، في أَيِّ زَمانٍ ومكانٍ».

وقَدْ ذَكَرَ المُؤَرخونَ لابْنِ خَلدون كُتباً مختلفَةً: في الحِسابِ والمَنطقِ والتَّاريخ، وَلكِن أَهَمَّ كتابٍ له وَصَلَ إِلينا هو كتابهُ الشَّهيرُ «كِتابُ العِبَرِ وديوانُ المُبتدأ والخَبرِ في أَيَّامِ العربِ والعَجمِ والبَربَرِ ومَنْ عاصَرَهُمْ مِنْ ذوي السُّلطانِ الأكبر».

وهُوَ كِتابٌ في سَبعةِ مُجلداتٍ، ويُعتَبرُ الكِتابُ الأَوَّلُ هُوَ المُقدِّمَةُ «الشَّهيرةُ الّتي تدرسُ ظواهِرَ الاجتماع والعُمرانِ البَشريِّ، أَمَّا الدِّراساتُ التَّاريخيَّةُ والجغرافيَّةُ فَشمَلت السِّتَة مُجلداتٍ الأُخْرى.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا اتَّسَمَ المَنْهجُ العَلميُّ الّذي اتَّبَعهُ ابْنُ خلدونَ؟

2 ـ إِلى مَنْ ينتسبُ ابْنُ خَلدونَ؟

3 ـ مِمَّنَ تعلَّمَ ابْنُ خلدونَ في بِدايَةِ حياتِهِ؟

4 ـ لِماذا لَمْ تُعجِب ابْنَ خلدونَ الإقامَةُ في فاس؟

5 ـ لِماذا لُوحِقَ ابْنُ خَلدونَ مِنْ قِبَلِ الحُكَّامِ وأَعوانِهِمْ؟

6 ـ لِماذا أَبْدَى الملكُ بَرقوقُ تعاطفاً مع ابْنِ خلدونَ؟

7 ـ ماذا قالَ «روبرت فلنت» عَنِ ابْنِ خَلدونَ؟

8 ـ مِمَّ يتألَّفُ كتابُ «العِبَرِ وديوان المبتدأ والخَبَرِ» وماذا احتوَى؟

الشَّريفُ الإدْريسيُّ
رَائِدُ عِلمِ الجُغرافيا
(521 ـ 581هـ)

أَعِزَّائي وأَحبَّائي:

الشَّريفُ الإدريسيُّ، رائِدُ عِلْمِ الجُغرافيا، وأَوَّلُ مَنْ رَسَمَ خريطَةً لِلأَرضِ على دائِرةٍ مَعْدَنيَّةٍ، وأَوَّلُ مَنْ صَنَعَ صورَةً لِلأَفْلاكِ على هيئَةِ كُراتٍ، وأَوَّلُ مَنْ تحدَّثَ عَن القَوانينِ الجُغرافيَّةِ العَامَّةِ لِلأَرضِ.

كانَ عُلماءُ الجُغرافيا العَربُ والمسلمونَ قبلَهُ يَتَحدَّثونَ عَنْ قِطاعٍ أَو عَنْ قِسْمٍ مِنَ الأَرضِ فَقَط، أو عَنْ أَقطارِ العالَمِ الإسلاميِّ دُونَ سِواهُ مِنْ أَقطارِ وبُلدان العَالَمِ، أَمَّا الشَّريف الإدريْسيُّ فَقَدْ عنيَ بِدراسَةِ العَالَمِ القَديمِ وجَميعِ بُلدانِهِ وأقطارِهِ المَعروفَةِ في عَصْرِهِ، واهتمَّ بِدراسَةِ القوانين الجُغرافيَّةِ العامَّةِ في كُلِّ أَقاليم الدُّنيا، ولم تَكُنْ أَبحاثُهُ ودراساتُهُ تَهتمُّ بِإِقليمٍ مُعيَّنٍ مِنَ الأرض، ووَضَعَ خَرائِط لِكُلِّ أَقاليمِ العالَمِ القَديمِ في حَوض البَحرِ الأَبيضِ المُتوسِّطِ الّذي كَانَ يُسمَّى قَديماً بِبحرِ الرُّومِ.

تَخرَّجَ مِنْ أَعرقِ جامعاتِ العَالَمِ، واخْتَصَّ بِالدِّراساتِ الجغرافيَّةِ والفلكيَّةِ مِنْ جامِعَةِ

قُرطبُةَ أَعرق جامعاتِ الشَّرقِ والغَربِ حينَها، ولِهذا اتَّسَمَتْ أَبحاثُهُ ومؤَلفاتُهُ في علمِ الجُغرافيا بِالأَكادِيميَّةِ، وتَجلَّتْ دِراساتُهُ بِالعُمْقِ العِلميِّ، وأَسْهَمَتْ إِسْهاماً كَبيراً في ارتقاءِ عِلمِ الجُغرافيا وفي تطورِهِ وازْدهارِهِ عِنْدَ الأُوربيِّينَ في العُصورِ الوُسْطَى والحَديثَةِ.

ولَمْ يَسْتَحقَّ الشَّريفُ الإِدريسيُّ لَقبَ رائِدِ عِلمِ الجُغرافيا عَبثاً، وإِنَّما لأَنَّهُ أَبْدعَ في هذا العلمِ آفاقاً جَديدة خَرجَتْ مِنْ طَورِ المَحليَّةِ إِلى طَورِ العَالميَّةِ، وربَطَ نَظرياتِ وقوانين عِلمِ الجُغرافيا بِالبَحثِ العِلميِّ الميدانيِّ المُسْتوفي بشروطه العلميَّةِ والنَّظريَة.

دَخَلَ البَحثُ الجغرافيُّ على يدِ الشَّريفِ الإِدريسيِّ طَوراً جديداً وظَهرتْ فيه آثارُ العُروبَةِ الحَقَّةِ، حَيْثُ كانَتْ مَعارفُ وعلومُ الشَّريفِ الإِدريسيِّ عربيَّةً خالِصَةً، تَمثَّلتْ بِجهدِهِ الشَّخصيِّ، وبِالمَعرفَةِ المُكْتَسَبَةِ مِنَ السَّفرِ والتَّنَقُّلِ والتَّطوافِ في البُلدان والأَصْقاع، وبِتَعاضُدِ الجُهودِ الجَماعيَّةِ مِنْ أَجْلِ جَمْعِ أَكبر قَدرٍ مِن المعلوماتِ الجُغرافيَّةِ عنِ العالَمِ القَديمِ. فَكَوَّنَ الإِدريسيُّ أَوَّلَ جمعيَّةٍ علميَّةٍ جُغرافيَّةٍ في صقلِيَةَ، فَهو مِنْ أَصحابِ الرَّأي الَّذين عَمِلوا ونادَوا بإِشاعةِ المعرفَةِ على أَبناءِ المجْتَمعِ، وعَلَى الإِنسانيَّةِ عامَّةً.

ويُمكنُ اعتبارُ الشَّريفِ الإِدريسيِّ مَدرسَةً جُغرافيَّةً بِحَدِّ ذَاتِها، قَامَتْ على أَساسِ الاسْتِقصاءِ والبَحثِ العلميِّ الميدانيِّ القائمِ على رَسمِ الخرائِطِ، واسْتِجلاءِ المعلوماتِ الجُغرافيَّة لِطَبيعَةِ البُلدانِ وتَضاريسِها.

ولا يَفوتُنا التَّأكيدُ، عَلَى أَنَّ الشَّريفَ الإِدريسيَّ أَعْطَى للفِكرِ الإِنْسانيِّ العَالميِّ صورَةً واضحَةً عَن التقَاءِ الحَضاراتِ وحوارِها مِنْ أَجْلِ خَيْرِ الإِنسانِيَّةِ وسَعادتِها، عِنْدَما تَضَافَرَتْ

جُهودُهُ العلميَّةُ مع جُهودِ الصقليِّينَ لإجراءِ البُحوثِ العلميَّةِ والاخْتِباراتِ الأُخْرى في مِضمارِ عِلمِ الجُغرافيا.

الأَمْرُ الّذي يُؤَكِّدُ لَنا، أَنَّ الشَّريفَ الإدريسيَّ رَائِدُ البَحْث العلميِّ في عِلْمِ الجُغرافيا على مَرِّ التَّاريخِ في العالَمِ أَجْمَع مِنْ دونِ مُنازعٍ.

فَمَنْ هُوَ الشَّريفُ الإدريسيُّ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ إدريسَ بْنِ يَحيَى، المَعروفُ بِالشَّريفِ الإدريسيِّ، ينتهي نَسَبُهُ إلى الإمامِ الحَسَنِ بْنِ عليِّ بْنِ أَبي طالِبٍ، مِن الأَدارِسَةِ الأَشْرافِ الّذينَ سَكَنوا بِلادَ المغربِ العَربيِّ، ثُمَّ سَكَنَ بَعضُهُمْ بِلادَ الأَنْدَلُس، وعُرف مِنْهُمْ بَنو حَمود الّذين حَكَموا جزءاً مِنْ بِلادِ الأَنْدَلُسِ ومنهم أَجْدادُ الشَّريفِ الإدْريسيِّ.

فإنَّ جَدَّهُ الأَعلى إدريسَ بْنَ يحيى بُويعَ خليفَةً في مدينَةِ مالِقَةَ بِالأَنْدَلُسِ سَنةَ (434) هجريَّةً، ولُقِّبَ بِالعالي، ولَكِنْ مَع مرورِ الأَيَّامِ انقرضَتْ دَولةُ بَني حَمود، وتَفرقوا في الأَقطارِ، ودَخَلَ قسمٌ مِنْهُمْ إلى جَزيرةِ صقليَّةَ، وكانَ مِنْهُمْ مُحمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ إدريسَ جَدُّ الشَّريفِ الإدريسيِّ.

وقَدْ حَاولَ بَعْضُ حُكَّامِ العَربِ في صقليَّةَ قَتلَ مُحمَّد بْن عَبْدِ اللهِ فَلَمْ يُفلِحوا. فَوَجَدَ مُحمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ نفسَهُ مُضْطَراً لِلنُّزوحِ مِنْ صقليَّةَ إلى المغربِ العَربيِّ، فَاسْتَوطَنَ في مَدينَةِ

سِبْتَةَ على ساحلِ بلادِ المغربِ هُوَ وأولادُهُ، وكانَ مِنْهُمْ مُحمَّدُ بْنُ مُحمَّدٍ بْنِ عَبدِ اللهِ والِدُ الشَّريفِ الإِدريسيِّ.

ولِدَ الشَّريفُ الإِدْريسيُّ في مدينَةِ سَبْتَةَ سَنةَ (521) هجريَّةً ونَشَأ وترعرَعَ فيها، ثُمَّ انْتَقَلَتْ أُسرتُهُ إِلى بِلادِ الأَنْدَلُسِ وأَقَامَتْ في مَدينة قُرطُبَةَ، الأَمرُ الَّذي أَتَاحَ للشَّريفِ الإِدريسيِّ الاطِّلاعَ على عُلومِ عَصرِهِ الّتي كانَتْ رائجةً في قُرطُبَةَ آنَذاكَ، وهي علومُ الفَلكِ والرِّياضياتِ والجُغرافيا وغيرُها، ودَرسَ في جَامِعَةِ قُرطُبةَ الّتي كانَتْ تَسْتَقطِبُ الطَّلَبَةَ مِنْ كافَّةِ بُلدانِ العالَمِ، وكانَ زميلُهُ في الدِّراسَةِ فيها شابّاً رومانيَّ الأَصْلِ مِنَ الفِرنْجَةِ الرُّومانديينَ يُدعَى «روجر» مِنْ أَبناء اِلمُلوكِ والأُمراءِ الرُّومانديينَ، أَصْبَحَ فيما بَعْدُ مَلِكاً عَلى صقليَّةَ وجنوبِ إِيطاليا.

فَدَعَا حينَها المَلِكُ «روجر الثَّاني» مَلِكُ صقليَّةَ زَميلَهُ في الدِّراسَةِ الشَّريفَ الإِدريسيَّ لِلإِقامَةِ في صقليَّةَ، فَغَادَرَ الشَّريفُ الإِدريسيُّ بِلادَ الأَنْدَلُسِ، مُلبياً طَلبَ زميلِهِ في الدِّراسَةِ «روجر الثَّاني» ملِكِ صقليَّة.

عِنْدَما دَخَلَ الشَّريفُ الإِدريسيُّ صقليَّةَ لاقَى مِنْ مَلِكِها الحَفاوَةَ والإِكرامَ، ما جَعلَهُ يَسْتأْنسُ في الإِقامةِ في صِقليَّةَ خيراً، كَما وَجَدَ في انتظارِهِ علماءَ آخرينَ ليدرسوا مَعَهُ جُغرافيا البِلادِ والعَالَمِ، مُسْتَغلينَ وجودَه بينَهُمْ، ومَعْرِفَتَهُ الكَبيرةَ في رَسْمِ الخرائِطِ، وتحديد المواقِعِ والصِّفاتِ التَّضاريسيَّةِ عليها.

وكانَ الإِدريسيُّ قَدْ طاف بِالبلادِ، وزارَ بلادَ المغربِ والأندلسِ ومصرَ، كما زارَ آسيا

الصُّغرى والقِسْطِنطينيَّةَ، ثُمَّ بَعْدَ إقامَتِهِ في صقليَّةَ تمكَّنَ مِنْ زيارةِ أُوروبا الغَربيَّةِ، وفي كُلِّ زياراتِهِ كانَ يدرسُ طبيعةَ البُلدانِ جُغرافياً وتضاريسياً ويَرسمُ لِذَلك الخَرائِطَ والمصوراتِ.

ويُقالُ: إنَّ الملكَ «روجر الثَّاني» عندما اتَّسَعَ سُلطانُهُ في بِلاد غَربِ أُوروبا، في إيطاليا وما جاورَها، رَغبَ في التَّعرفِ إلى جُغرافيَّةِ بِلادِهِ الشَّاسِعَة، فَأَمَرَ الشَّريفَ الإدريسيَّ بِجَمع العُلماءِ لِدِراسَةِ ذَلِكَ، فَأَمْضَوا مَعَه خَمسَ عشر سَنَةً في صقليَّةَ يَدرسونَ ويُحقِّقونَ ويُباحثونَ ويُسجِّلونَ معلوماتِهِم المُتَّفَق عليها بِإشرافِ الشَّريفِ الإدريسيِّ.

وقَدْ تَمكَّنَ بَعْدَ هَذا البَحثِ الطَّويل والمُتضافِرِ مِنْ تأليفِ كتابِهِ الشَّهيرِ في عِلمِ الجُغرافيا «نُزهَةِ المُشْتاقِ في اخْتراقِ الآفاقِ» بِطَلبٍ مِنَ المَلِك «روجَر»، وذَلِكَ بَعْدَ أَن رَسَمَ خريطَةً على دائرة فضيَّةٍ كبيرة للعالَمِ القَديم، ودوَّنَ عليها المعلوماتِ الجُغرافيَّةَ، كما أُطْلِق على كتابِ الإدريسيِّ المَذكورِ كتابَ «رجَّار» نسبةً إلى مَلِكِ صقليَّةَ.

لَقَدْ أَلَّفَ الشَّريفُ الإدريسيُّ كتابَهُ «نزهةَ المُشتاقِ» طبقاً لِمَا هُو مَرسوم في الدَّائِرَةِ الفضيَّةِ، فَحَوى معلوماتٍ هامَّةً عَنِ الأَرضِ وما فيها: طبيعياً وبَشرياً، مُفصِّلاً في التِّجارَةِ والصِّناعَةِ والزِّراعَةِ والأَديانِ والمَلابِسِ واللُّغاتِ.

وقَدْ تحدَّثَ في مُقدمَةِ كتابِهِ عَنْ تِلكَ الدائِرَةِ الفضيَّةِ الكَبيرةِ الّتي حَفَرَ عليها خريطَةَ العالَمِ، فقالَ: «فَلمَّا تَمَّ كُلُّ شَيءٍ أَمَرَ أَنْ يُفرغَ لَهُ مِنَ الفِضَّةِ الخَالِصَةِ دائِرَةً عظيمَةَ الجُرمِ، ضَخمَةَ الجِسمِ، في وزنِ (400) رطلٍ روميٍّ، وفي كُلِّ رَطل مِنْها (112) درهماً، ثُمَّ أَمَرَ الفَعلةَ أَنْ يَنقشُوا عليها صورَةَ الأَقاليمِ السَّبعَةِ بِبلادِها، وأَطوالِها، وأَقطارِها، وسُبُلِها

ورِيفها، وخُلجانِها، وبِحارِها، ومجاريها، وتوابِعِ أَنهارِها، وعامرِها، وغامرِها، وما بينَ كُلِّ بُعدٍ مِنْ الطُّرُوقاتِ المَطروقَةِ، والأَميالِ المحدودَةِ، والمَسافاتِ، والمراسي المعروفةِ، ولا يُغادروا مِنها شَيئاً».

❋ ❋ ❋

لَقَدْ سَبَقَ الإِدريسيُّ عَصْرَهُ في الأَبحاثِ الجُغرافيَّةِ، وفيما قَدَّمَهُ مِنْ معلوماتٍ دقيقَةٍ في هَذا المضمارِ، جاءَتْ صحيحةً مَعَ ما أَكَّد وجاءَ بِهِ العِلمُ الحَديثُ في عَصْرِنا هَذا.

ونَقلاً عَنْ موسوعةِ «عُلماءِ الإسلام» نَذكُرُ: أَنَّ الإدريسيَّ صَحَّحَ في كتابِهِ: «نُزهَةِ المُشْتاقِ» عُلومَ الأُوربيِّينَ، الشَّائِقة يومذاكَ، فَاهْتمّوا بِهِ ونَقلوا عَنْهُ، مُركزينَ عَلَى دِقَّةِ خرائطِهِ، إِذْ كانَتْ عَلَى دَرجَةٍ عظيمةٍ مِنَ الصِّحةِ. والإِدريسيُّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ رَسَمَ خريطَةً للعالمِ صَحيحَةً ومُعَقَّدَةً رغمَ نقلِه مَعلوماتٍ عَنْ جُغرافيِّينَ سَبقوهُ، إِلَّا أَنَّ كتابَهُ تميَّزَ بـ:

أَولاً: خرائطِهِ (حَيثُ رَسَمَ فيه خرائِط لِلأَقاليمِ السَّبعَةِ).

ثانياً: جَمعِهِ للمعلوماتِ المُشتَقَّةِ باتِّفاقٍ أكثر مِنْ عالِمٍ، مِنْ ذَلِكَ: «والأَرضُ ذاتُها مُستَديرةٌ لَكِنَّها غيرُ صادِقَةِ الاسْتِدارَةِ، والبَحْرُ المُحيطُ بِنصفِ الأَرضِ إِحاطَةً مُتَّصلةً دائِرتُها، فَكذلِكَ الأَرضُ، نصفُها مُغرَق في البَحرِ، والبَحرُ يحيطُ بِهِ الهواءُ».

«واستدارةُ الفَلكِ في مَوضِعِ خطِّ الاسْتواءِ (360) درجَةً، وبينَ خَطِّ الاستواءِ، وكُلِّ واحدٍ مِنَ القطبينِ (90) درجةً إِلَّا أَنَّ العمارَةَ في الأرضِ بَعْدَ خطِّ الاستواءِ (64) درجَةً، والباقي مِنَ الأَرضِ خَلاءٌ لا عمارةَ فيه، لِشِدَّةِ البَردِ والجُمودِ».

وقد جَعَلَ الإدريسيُّ العالَمَ سَبْعَةَ أَقاليمَ، وفي وصفِهِ لبُلدانِها لم يكُنْ دائماً دقيقاً ومستوفياً، فَقد اسْتَخدَمَ للمسافاتِ الميلَ والفَرسَخَ، لَكِنْ لم يَذْكُرْ خطوط الطُّولِ والعَرضِ.

وممَّا قالَهُ في كتابِه بِهذا الخُصوصِ:

«الأرضُ مُسْتَقِرَّةٌ في جَوفِ الفَلَكِ، وذَلِكَ لِسُرعَةِ حركَةِ الفَلَكِ، وجميعُ المخلوقات على ظَهرِها، والنَّسيمُ جاذبٌ لِما في أَبدانِهِمْ مِنَ الخِفَّةِ، والأَرضُ جاذِبَةٌ لِما في أَبْدانِهِمْ مِنَ الثِّقلِ، بِمَنزلَةِ المِغناطيسِ الّذي يَجذِبُ الحديدَ إليهِ، فالأَرضُ مَقسومةٌ بِقسمينِ، بَيْنَهما خَطُّ الاستواءِ، وهُوَ مِنَ المَشرقِ إلى المَغربِ، وهَذا هُوَ طُولُ الأَرضِ وهو أَكبرُ خَطٍّ في الأَرضِ، كما أَنَّ منطِقَةَ فَلَكِ البُروجِ أَكبَرُ خطٍّ في الفَلَكِ».

«واسْتِدارَةُ الفلكِ في مَوضِعِ خَطِّ الاستواءِ، ثلاثمئة وستونَ دَرجَةً، والدَّرجَةُ خمسةٌ وعشرونَ فرسخاً، والفَرسَخُ اثنا عَشَرَ أَلفِ ذِراعٍ، والذِّراعُ أَربَعةٌ وعشرونَ إِصبعاً، والإِصْبعُ سِتُّ حَبَّاتِ شعيرٍ مَصْفوفةٌ مُلْصَقَةٌ بطونُ بَعضِها لِظهورِ بعضٍ... تكونُ بِهَذِهِ النِّسبَةِ إحاطةُ الأَرضِ مئةَ أَلفِ أَلفِ ذِراعٍ، واثنين وثلاثينَ أَلفِ أَلفِ ذراعٍ، وهيَ مِنَ الفَراسِخِ أَحَدَ عَشَرَ أَلفِ فَرسَخٍ» ثُمَّ قال: «وهَذا بِحسابِ أَهْلِ الهِند، وأَمَّا هُرمسُ فَإِنَّهُ قَدَّرَ إِحاطَةَ الأَرضِ وجَعَلَ لِكُلِّ جزءٍ مئَةَ ميلٍ، فَتكونُ سِتَّةً وثلاثينَ أَلفِ ميلٍ وتكونُ مِنَ الفَراسِخِ اثني عَشَرَ أَلفِ فَرسَخٍ».

ومِنْ خِلالِ هَذا الكلامِ تَبيَّنَ لَنا مَدَى دِقَّةِ الشَّريفِ الإِدريسيِّ في البُحوثِ الجُغرافيَّةِ،

وبِأَنَّهُ لم يَعْتَمِدْ عَلَى المعلوماتِ الّتي أَولَى بِها مَنْ سَبَقوهُ مِنَ العُلماءِ، وإِنَّما كانَ يُناقِشُ ويَبحَثُ ويجتهِدُ مُكْتَشِفاً أموراً جَديدَةً.

❁ ❁ ❁

اعْتَبره بَعضُ المُستَشرقينَ الأُوربيِّينَ مَدرسَةً كامِلَةً ومُسْتَقِلَّةً في علمِ الجُغرافيا بَعْدَ انتشارِ أَبْحاثِهِ ومُؤَلفاتِهِ في أُوربا.

يَقولُ البَاحِثُ أَحمدُ الملا في كتابِهِ «أَثر العُلماءِ المُسلمينَ في الحضارَةِ الأُوربيَّةِ»:

الإِدريسيُّ يُمثِّلُ مدرسَةً جُغرافيَّةً خاصَّةً، هي الّتي سَمَّاها (ميلر) المدرسَة العربيَّةَ النُّورمانديَّةَ، فَقَدْ كانَ بلاطُ «روجَر الثَّاني» مُلتَقَى الحَضارتينِ، الإِسلاميَّةِ والغَربيَّةِ، وموئِلاً للحريَّةِ العلميَّةِ في القَرن الثاني عَشَر الميلادي، والخُرطُ الّتي رَسَمَها الإِدريسيُّ، كانَتْ ذاتَ أَثرٍ كبيرٍ في تَصويرِ الدُّنيا للأُوربيِّينَ مُدَّةً طويلةً بَعْدَ عَصرِهِ.

وكتابُه «نزهةُ المُشتاقِ» تُرجِمَ إِلى اللُّغَةِ اللَّاتينيَّةِ في إِسْبانيا عامَ (1799) ميلاديَّةً، وعَنْ هَذا الكِتابِ أَخَذَتْ أُوربا علم الجُغرافيا في القرون الوسطى، واسْتمرَّت تَنسخُهُ ثلاثَةَ قرونٍ كامِلَة، كما نَقَلَهُ العَالِمُ الفَرنسيُّ «جوبار» إِلى اللُّغَةِ الفرنسيَّةِ في مُجلدين طُبِعا في باريس سنةَ (1836 ـ 1840) ميلاديَّةً. ولِلإِدريسيِّ في الجُغرافيا أيضاً، كتابٌ آخَرُ قدَّمَهُ لِلمَلِكِ غليوم الأَوَّلِ خليفَةِ المَلِكِ «روجر الثَّاني» أَسماهُ «روضَ الأُنْسِ ونُزهةَ النَّفسِ».

ومِنْ مؤَلفاتِ الشَّريفِ الإِدريسيِّ أيضاً كِتابٌ في عِلمِ الفَلَكِ أَسماهُ «أُنْسَ المهجِ وروض الفَرجِ»، وكتابٌ آخرُ في علمِ النَّباتِ والأَدويَةِ المُفرَدَة أسماهُ: «الجامِعَ لِصفاتِ

أَشتاتِ النَّباتِ، وضُروب أَنواعِ المُفرداتِ مِنَ الأَشجارِ والثِّمارِ والحَشائشِ والأَزهارِ والحيواناتِ والمَعادِنِ وتفسير أَسمائِها بِالسِّريانيَّةِ واليونانيَّةِ واللّطينيَّةِ والبَربريَةِ».

توفي الشَّريفُ الإِدريسيُّ سَنةَ (581) هجريَّةً في صقليَّةَ ودُفِنَ فيها، ومِنْ شعرِهِ يعلِّلُ النَّفسَ في ديارِ الغُربَةِ بعيداً عَنْ أَهلِهِ ووطنِه:

لَيتَ شِعري أَينَ قَبري ضَاعَ في الغُربَةِ عُمري
لَمْ أَدَعْ للعين ما تشـ ـتاقُ في بَرٍّ وبَحرِ
وخُبرتُ النَّاسَ والأَر ضَ لَدَى خيرٍ وشَرِّ
لَمْ أَجِدْ جاراً ولا دا راً كَما في طيِّ صَدري
فَكأَنّي لم أُسَرْ رُ إِلَّا بِمَيِّتٍ أَو بِقَفْرِ

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا اهْتمَّ الإِدريسيُّ، وماذا وضَعَ؟

2 ـ لِماذا اتَّسَمَتْ أَبحاثُ الإِدريسيِّ بِالأَكاديميَّةِ؟

3 ـ لِماذا اسْتَحَقَّ الإِدريسيُّ لَقَبَ رائِدِ علمِ الجُغرافيا؟

4 ـ أَينَ دَرَسَ الإِدريسيُّ، ومَنْ كانَ زميلُهُ في الدِّراسَةِ؟

5 ـ لِماذا رَحَلَ الإدريسيُّ إِلى صقليَّةَ وأَقام فيها؟

6 ـ ماذا حَوَى كتابُ الإِدريسيِّ «نُزْهَةُ المُشتاقِ»؟

7 ـ ما هي أَهميَّةُ الخُرطِ الّتي رسَمَها الإِدريسيُّ؟

8 ـ عَدِّدْ مُؤَلفاتِ الإِدريسيِّ؟

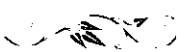

ابْنُ بَطوطَةَ الطَّنْجيُّ
رَحَّالَةُ الإِسلامِ
(704 ـ 779هـ)

أَعِزَّائي وأَحبَّائي:

ابْنُ بَطوطَة الطَّنْجيُّ، رَحالَةُ الإِسلامِ في القُرونِ الوسْطَى، الّذي شَغلَتْ رِحلتُهُ العَالَمَ أَجْمعَ، وكانَ لَهَا أَثَرها الوَاضِح في آدابِ الشُّعوب قَديماً وحَديثاً، هُوَ بِلا مُنازعٍ أَشْهَرُ الرَّحالةِ في تَاريخِ الإِنْسانيَّةِ مُنذُ بِدءِ الخَليقَةِ إِلى يومِنا هذا. لِأَنَّ رحلَتُه اتَّسَمَتْ بِالعِلميَّةِ، وأَخَذَتْ بُعْداً فِكرياً واجتماعيّاً وجُغرافيّاً وتَاريخيّاً، فَعِندَ قِراءَتِنا لِرحلَة ابْنِ بَطوطَةَ نُلاحِظُ فيها ابْنَ بَطوطَةَ المُؤَرخَ والمُفكِّرَ وعالِمَ التَّاريخِ والجُغرافيا والاجتماع.

كَما نُلاحِظُ تَلَوُّنَ شَخصيَّةِ ابْنِ بَطوطَةَ في رِحلتِهِ حَسَبَ طَبيعَةِ البُلدانِ الّتي زارَها، وعايَشَ شَعبَها، فَهو في زيارَتِهِ لِلدُّوَلِ الغنيَّةِ يُصْبحُ ابْنَ بَطوطَةَ الغَنيَّ والمُترَفَ، وعِندما يَزورُ البُلدانَ الفَقيرَةَ يُصْبحُ ابْنَ بَطوطَةَ الفَقيرَ الزَّاهِدَ بِالعيشِ وبِالحياةِ. وإِن دَلَّ ذَلِكَ على شَيءٍ، فَإِنَّما عَلَى تَميُّزِ رِحلتِهِ بِالحَيويَّةِ والاسْتجابَةِ لِمتَطَلَّباتِ الظُّروفِ الاجتماعيَّةِ،

وللمُتغيراتِ البيئيَّةِ، فَكانَ يُسجِّلُ انْطِباعاتِهِ المُتَنوعَةَ بِشَكلٍ صَريحٍ، مُظْهِراً البَواعِثَ النَّفسيَّةَ الكامِنَةَ وَراءَ عاداتِ الشُّعوبِ وتَقَاليدِهِمْ.

كَما استطاعَ أَنْ يَصِفَ البُلدانَ الّتي زارَها وصفاً جُغرافيّاً دَقيقاً، مُبيِّناً الطَّبيعةَ العُمرانيَّةَ والتَّضاريسيَّةَ لِتلكَ البُلدانِ، فَكانَ وَصْفُهُ هَذا رافِداً جَديداً أَغنَى بِهِ قاموسَ عِلمِ الجُغرافيا بِمعلوماتٍ وحقائِقَ جَديدةٍ عَنْ طبيعَةِ بَعضِ البُلدانِ وتضاريسِها وسُكَّانِها وأَنْشِطَتِهِم الاجتماعيَّةِ والثَّقافيَّةِ والاقتصاديةِ، وغَيرِ ذَلكَ مِنْ أَنْماطِ النَّشاطِ والسُّلوكِ البَشريِّ... إلخ.

فَابْنُ بَطوطَةَ لَمْ يَخرُجْ في رحلَتِهِ هَذِهِ بُغيَةَ السِّياحَةِ والتَّطوافِ في طُولِ البُلدانِ وعَرضِها، ولَمْ يَرْحَلْ لِمُجرَّدِ الرِّياضَةِ الرُّوحيَّةِ والنفسيَّةِ، وإِنَّما كان يَبْتغي مِنْ وراءِ ذَلِك العِلمَ والاكتِشافَ والمقارنَةَ بينَ الظَّواهِرِ الطَّبيعيَّةِ والتَّضاريسيَّة وبينَ الظَّواهِرِ والمَظاهِرِ الإِنْسانيَّةِ والاجتماعيَّةِ عِنْدَ الأُمَمِ والشُّعوبِ المختلفَةِ بِطَبائِعها وعاداتِها.

أَجَلْ... لَقَد انطلَقَ في رحلتِهِ مَدْفوعاً مِنَ البَواعِثِ الدِّينيَّةِ، ومِنَ القِيم والمَبادئِ الإِسلاميَّةِ الّتي تَحضهُ على الرِّحلةِ والسَّعي والضَّربِ في مَناكِبِ الأَرضِ سَعياً وَراءَ العِلمِ والرِّزقِ، واكتشافِ المَجهولِ، والدَّعوةِ إِلى الخَيرِ والمَحبَّةِ مُمْتثلاً قَولَ الحَقِّ تَبارَك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15]. ومُمْتَثلاً الأَثَرَ الّذي يقولُ: «اطلبوا العِلمَ ولو في الصِّين». وهَذا ما حَدا بِابْنَ بَطوطَةَ حقيقةً عَلَى القيامِ بِرِحلَتِهِ هَذِهِ.

فَمَنْ هو ابْنُ بَطوطَةَ الّذي أُطلِق عليهِ رحَّالةُ الإسلامِ تارةً، والرَّحالَةُ الأَمينُ تَارةً أُخرى؟

❋ ❋ ❋

هُوَ أَبو عَبْدِ اللهِ شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ بْنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ اللَّواتي، نسبَةً إِلى إِحدى قبائِلِ البَربَرِ في المَغربِ العَربيِّ، وعُرِف بِابْنِ بَطوطَة. ولِدَ سَنةَ (704) هجريَّةً في مَدينَةِ طَنْجَةَ فقيل لَهُ الطَّنجيُّ، ونَشَأَ وترعرعَ في طَنْجَةَ حَتَّى بَلغَ الثَّانيَةَ والعِشرينَ مِنْ عُمرِهِ، فَانْدفَعَ بِدافعِ الإيمانِ ـ لأَنَّهُ كانَ رجلاً ورعاً مُتَصوِّفاً ـ إِلى السَّفر والتَّرحالِ، فَسافَرَ إِلى الدِّيارِ المُقدَّسَةِ في مَكَّةَ، وأَدَّى فَرضَ الحَجِّ، ثُمَّ مِنْ هُناكَ قامَ بِرحلَتِهِ الشَّهيرةِ، إِلى شَتَّى أَقطابِ العالمِ المَعروفِ في عَصرِهِ.

ومِمَّا لا شَكَّ فيه أَنَّ ابْنَ بَطوطَةَ قَدْ سَمِعَ خَبَرَ رحّالةِ العَربِ والإِسلامِ الذين رحلوا قَبْلَهُ في البَرِّ والبَحرِ، وجابوا الأَصقاعَ والبُلدانَ، وسَجَّلوا رِحالاتِهِمْ في دِيوانِ التُّراثِ العَربي والإِسلاميِّ.

وقَدْ سَمِعَ كَذلِكَ أَخبارَهُم الّتي نَقلوها عَنْ أَخبارِ الأُمَمِ الماضيَةِ وَالحَاضِرَة، واسْتَجلوا فِيها العِبَرَ والحقائِقَ الّتي تُفيد في وجوهِ الإِصْلاحِ الاجتماعيِّ والاقتصادي والسِّياسيِّ، كَما أَغْنوا العُلومَ والمعارِفَ الإِنْسانيَّةَ بِمَعلوماتٍ غنيَّةٍ عَنْ أُمورٍ وأَشياءَ لَمْ تَكُنْ مَعروفةً مِنْ قَبْل.

ولَعمرِ الحَقِّ، هَذا ما أَشارَ إِليهِ ابْنُ خَلدونَ في مُقَدِّمَتِهِ بِقولِهِ:

«إنَّ الرِّحلةَ في طَلَبِ العِلمِ ولقاءِ الأَساتِذَةِ مَزيدُ كَمالٍ في التَّعلُّمِ، فَالرِّحلةُ لابُدَّ مِنْها في العِلمِ لاكتسابِ الفوائِدِ والكَمالِ».

وطَلباً للعِلمِ بِأَحوالِ الشُّعوبِ والأُمَمِ، وسَعياً نَحوَ الكَمالِ العِلميِّ والمعرفيِّ، خَرجَ ابْنُ بَطوطَةَ في رحلَتِهِ المَشهورَةِ حَولَ العالَمِ الإِسلاميِّ، وحَولَ البُلدانِ الآسْيويَّةِ البعيدَةِ، فَلَقَد بَدأ رِحلَتَهُ في القُرونِ الوسْطى عام (746) هجريَّةً فَاجتازَ شَمالَ أَفريقيَّةَ ومِصْرَ والشَّامَ والعِراقَ وجَزيرةَ العَربِ، ثُمَّ عَرَّجَ عَلَى القسطنطينيَّةِ وإِيرانَ والهندِ والصِّينِ، وزارَ بَعضَ الجُزُرِ مِثْلَ: سومطرةَ وجاوَه، ثُمَّ عادَ إِلى مراكِشَ بحراً، وبَعْدَ عودَتِهِ زارَ الأَندلُسَ وجُنوبي أَفريقيَّةَ، وكَتَبَ هَذا كُلَّهُ في رحلتِهِ المُمْتِعَةِ الّتي تُرجِمَتْ إِلى عِدَّةِ لُغاتٍ.

أَمْلَى ابْنُ بَطوطَةَ رِحلَتَهُ هَذهِ عَلَى أَحَدِ الكُتابِ والأُدباءِ مِنْ أَهْلِ طَنْجَةَ في المغربِ العربيِّ يُدْعَى مُحمَّدُ بْنُ جَزي الكَلبيُّ، فَانْتَهى مِنْ كتابَتِها سَنةَ (777) هجريَّةً، وأَطْلَقَ عليها: «تُحفَةَ النُّظارِ في غرائبِ الأَمصارِ، وعجائِبِ الأَسفارِ»، وكَما يقولُ البَاحِثُ الأُسْتاذُ «أَحمد الملَّا» في كتابِهِ «أَثرِ العُلماءِ المُسلمينَ على الحَضارَةِ الأُوربيَّةِ» أَنَّ رحلة ابْنِ بَطوطَةَ كَشَفَتْ عَنْ أَسرارٍ كَثيرَةٍ مِنْ البِلادِ الّتي زارَها، إِذْ يُعَدُّ ابْنُ بَطوطَةَ أَوَّلَ مَنْ ذَكَرَ شيئاً عَن استعمالِ وَرَقِ النَّقدِ - مِنَ الصِّينِ - وعَنِ استخدامِ الفَحمِ الحَجريِّ.

❋ ❋ ❋

ويُتابعُ البَاحِثُ «أَحمدُ الملا» قائلاً:

«إنَّ ابْنَ بَطوطَةَ كانَ صادِقاً في أَغْلَبِ أَوصافِهِ، حَتَّى إنَّ المُسْتَشرِق الكَبيرَ «دوزي»

أَطْلَقَ عليهِ الرَّحالةَ الأَمينَ، وأَفادَ ابْنُ بَطوطَةَ عِلْمَ الجُغرافيا بِما ذَكَرَ مِنْ أَوصافٍ للبيئَةِ الطَّبيعيَّةِ والتَّضاريسِ، والجُغرافيَةِ البَشريَّةِ، والسُكانِ والعاداتِ والتَّقاليد».

أَجَلْ.. لَقَدْ لَفَتَ ابْنُ بَطوطةَ الأَنظارَ إِلى رِحلتِهِ، أَنظارَ العالَمِ كُلِّهِ، مُنْذُ ذَلِكَ الحينِ إِلى يَومِنا هَذا، ولا تَزالُ رِحلَتُهُ مَصْدَرَ إِلهامٍ لِكَثيرٍ مِنَ العُلماءِ والأُدَباءِ ولِلمُهتمِّينَ في عِلمِ الجُغرافيا والتَّاريخِ، فَقَد اهْتمَّ بِهذهِ الرِّحلةِ كَثيرٌ مِنَ المُسْتَشرقين والباحثينَ، وظَلَّتْ مَوضِعَ ثِقَتِهِمْ بِالمَعلوماتِ الهامَّةِ الّتي أَفادَ بِها ابْنُ بَطوطَةَ الفِكرَ الإِنْسانيَّ، فَارْتَقَتْ بِسَببِ ذَلِكَ إِلى العالميَّةِ فَنَقَلَها القِسُّ «صموئيل لي» إِلى اللُّغَةِ الإِنكليزيَّةِ، وطُبِعَتْ في لُندنَ عام (1829م)، ونَقَلَها «ويفريموي» و«سنكونيتي» إِلى اللُّغَةِ الفَرنسيَّةِ، وطُبِعَتْ في باريس عام (1859م) في خَمسِ مُجلَّداتٍ، كما تَرجَمها المُسْتَشرِقُ «مَزيك» إِلى اللُّغَةِ الأَلمانيَّةِ وطُبِعَتْ عام (1913م).

كما تُرجِمَتْ إِلى اللُّغَةِ التُّركيَّةِ تحتَ اسمِ «تقويم ووقائع»، ثُمَّ تُرجِمَتْ مُؤَخراً إِلى اللُّغَةِ الفارسيَّةِ والأُورديَّةِ. وتُعتَبرُ رِحلةُ ابْنِ بَطوطَةَ مِنْ أَكْثَرِ كُتُبِ الرِّحلاتِ بيعاً في العالمِ قاطبَةً.

وقَدْ حَوَتْ الرِحلة كثيراً مِنْ الأَخبارِ الطَّريفَةِ والحكاياتِ النَّادرَةِ، وعجائب المخلوقاتِ في الحيوانِ والنَّباتِ. وحَسبُ ابْن بَطوطَةَ فخراً أن يَشهدَ بِفضلِهِ عَلى العلمِ والأَدب العالِمُ الأُوربيُّ الكَبيرُ «سِتزن» فيقول ما معناهُ:

«أَيُّ سائِحٍ أَوربيٍّ يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْتَخِرَ، بِأَنَّهُ قَضَى مِنَ الزَّمَنِ ما قَضَاهُ ابْنُ بَطوطَةَ في البَحثِ لِكَشْفِ المجهولِ، مِنْ أَحوالِ هَذا العَددِ الكَبيرِ مِنَ البُلدانِ السَّحيقَةِ، وتَحمُّلِ

مَشَاقِّ الأَسفارِ ما تحمَّلَهُ بِصَبرٍ وشجاعَةٍ وثباتٍ، بَلْ أَيُّ أُمَّةٍ أُوروبيَّةٍ كانَ يُمْكِنُها ـ مِنْذُ خَمسةِ قُرونٍ ـ أَن تَجدَ مِنْ أَبْنائِها مَنْ يجوبُ البِلادَ الأَجنبيَّةَ، وفيهِ مِنَ الاستقلال بالحكْمِ والقدْرَةِ عَلى المُلاحَظَةِ، والدِّقَّةِ في الكِتابَةِ ما لِهذا الرَّحالةِ العظيم».

❁ ❁ ❁

لَقَدْ تَأَلَّفَتْ رِحلَةُ ابْنِ بَطوطَةَ مِنْ ثلاثِ رِحلاتٍ اسْتَغْرَقَتْ في مَجموعها نَحو تِسعٍ وعشرينَ سَنَةً.

الرِّحلةُ الأُولى: كانَتْ أَطوَلَ رِحلاتِهِ، التِّي جاب خَلالَها سائِرَ أَقْطارِ المَغربِ والمَشْرِقِ، وكانَتْ أَطْوَلُ إِقامَةٍ لَهُ في هَذهِ الرِّحلةِ في بِلاد الهندِ، حيثُ أَقام فيها سنتينِ مُتواصلتينِ وتولَّى فيها القضاءَ بَعْدَ أَنْ قَامَتْ بَيْنَهُ وبينَ سُلطانِ الهندِ علاقَةُ ودٍّ وصَداقَةٍ فَأُسْندَ إِليهِ بِموجِبِها القَضاء في الهِندِ، ثُمَّ أَقامَ في الصِّينِ سَنَةً ونِصْفَ السَّنَةِ تَولَّى خِلالَها القضاءَ في الصِّينِ أَيضاً.

وفي هَذهِ الرِّحْلَةِ وَصَفَ كُلَّ ما شَاهَدَهُ وعايَنَهُ في بِلادِ الصِّينِ والهِنْدِ، وسائرِ أَقطارِ المَشرقِ الّتي زارَها، فَوصَفَ عَاداتِ الشُّعوبِ، وملابِسَهُمْ، وأَخلاقَهُمْ وأَديانَهُمْ، كما ذَكَرَ كُلَّ مَنْ لَقِيَهُ مِنْ حُكَّامٍ وسَلاطين وأُمراء وعُلماءَ وأَعيانٍ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، كَما ذَكَرَ الأَحْداثَ والوقائِعَ التي عايَنَها في كُلِّ بَلدٍ زارَهُ مِنْ حروبٍ وخِلافاتٍ، وحَوادِثَ طبيعيَّةٍ في البَرِّ والبحرِ، كَما ذَكَرَ أيضاً الأَماكنَ الدِّينيَّةَ مِنْ معابدَ ومساجدَ وكنائسَ وصَوامعَ وزوايا لِأَصحاب الطُّرقِ الصُوفيَّةِ، وزارَ المكانَ الّذي يُقالُ فيه أَثَرَ قَدمِ آدَمَ عليه السلام في جَبَلِ سَرْنَديبِ.

وكَانَ يَصِفُ ما يُلاقيهِ مِنْ أَهالي وشُعوبِ الأماكنِ التي يزورُها مِنْ حَفَاوَةٍ وتَرحيبٍ، أَو مِنْ إهمالٍ ولا مداراة.

أَمَّا **الرِّحلةُ الثَّانيةُ**: فَكانَتْ إِلى بِلادِ الأَنْدَلُسِ، بَعْدَ عودَتِهِ مِن الرِّحلة الأُولى إِلى مَدينَةِ طَنْجَةَ، أَقامَ فَترَةً ثُمَّ واصل رحلتَهُ إِلى الأَنْدلُسِ، وجَابَ مُدنَها العامرَةِ والتقَى فيها بِأعيانِ الأَنْدَلُسِ وعُلمائِها وجَرَتْ بَيْنَهُ وبَينَهُمْ مُظارفَةٌ ومَمالحَةٌ، ووَصَفَ مُشَاهَداتِهِ في بِلادِ الأَنْدلُسِ وما رآهُ مِنْ عُمرانٍ وازْدِهارٍ فيها.

أَمَّا **الرِّحلةُ الثَّالِثَةُ**: فَكانَتْ إِلى أَفريقيَّةَ بَعْدَ عودَتِهِ مِنْ رحلَةِ الأَندلُسِ، واصَلَ سَفرَهُ وتَرحالَهُ فزارَ عِدَّةَ بُلدانٍ أَفريقيَّةٍ، كبِلاد السُّودانِ، وجابَ في الأَقطارِ الأَفريقيَّةِ الشَّرقيَّةِ، ووَصَفَ عاداتِ قبائِلِها وشعوبِها، وتقاليدَهُمْ في الأَفراح والأَتراح والأَحزانِ، وتنظيماتِهِم القبليَةَ.. إلخ.

ونُلاحِظُ اهْتِمامَ ابْنِ بطوطَةَ بِالطُّرقِ الصُّوفيَةِ وبِزواياهُم اهتماماً كبيراً في رحلَتِهِ هَذهِ، لِأَنَّهُ خَرجَ في رِحلَتِهِ عَلى زَيِّ التَّصوفِ، فَقَدْ ذَكَرَ مُشاهَداتِهِ عَنْ هَذهِ الطُّرقِ في جَميعِ البُلدانِ الّتي زارَها وبِشكلٍ خاصٍّ في تونُسَ ومِصرَ والعراقِ والشَّامِ وبِلادِ فارِس والهِنْدِ، وحكَى عَنْ أَخبارِ الجالياتِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ في بِلادِ الهِنْد والصِّينِ وعَنْ وَضعِهِم الاجتماعي والسِّياسي في تِلكَ البُلدانِ.

❋ ❋ ❋

المُلْفِتُ للنَّظَرِ في رِحلَةِ ابْنِ بَطوطَةَ، هو غِناها بِالقِصَصِ والحكاياتِ الغَريبَةِ والخياليَّةِ،

حَتَّى إنَّ القارِئَ لَيَسْخَر مِنْ صِحَّةِ هَذِهِ الحِكاياتِ والغَرائِبِ، أَو ربَّما شَكَّ في نوايا ابْنِ بَطوطَةَ في روايتِهِ لِهَذِهِ الأَخبارِ والحكاياتِ.

ولَكِنْ في الحقيقَةِ، كَانَ صادِقاً في كُلِّ ما رواهُ وحَكاهُ عنْ قِصَصٍ غريبَةٍ وعجيبَةٍ عَن الشُّعوبِ الّتي زارَها، وكانَ يَنْقُلُها نَقْلاً مباشراً مِنْ غَيرِ التَّأَكُّدِ مِنْ صِحَّتِها أَو فَحصِها، بِحكمِ العاطِفَةِ الدِّينيَّةِ، ونَزعَةِ التَّصوفِ الّتي جُبِلَ عَليها مُنْذُ صِغَرِهِ، فَروى الكَثيرَ مِنْ قِصَصِ كَراماتِ الأَولياءِ وسَردَها كَما رُويتْ لَهُ، لِأَنَّهُ كانَ صادِقَ النِّيَةِ شَديدَ الإِيمانِ بِكَراماتِ الأَولياءِ ما كانَ مِنْها صحيحاً أو غيرَ صَحيحٍ، فَكانَ يقبَلُ كُلَّ ذَلِكَ بِعاطِفَةٍ دينيَّةٍ عَفويَةٍ، فمثلاً أَثناءَ مُرورِهِ بِإحدى المُدن المصريَّةِ يَذكُر إقامَتَهُ في زاويَةِ المُتصوِّفِ الشَّيخ عَبْدِ اللهِ المُرشديِّ، فيذكُرُ عَنْهُ واصفاً إِياهُ: «الشَّيخُ الصَّالِحُ العابِدُ المُنْقَطِعُ المُنْفِقُ مِنَ الكَونِ».

فَهو يَصِفُ الشَّيخَ المُرشديَّ أَنَّ الرِّزقَ يَأتيهِ مِنَ الكَونِ، أَي: مِنْ عِنْدِ اللهِ. ويَذكُرُ أَيضاً أَثناءَ توديعِهِ لِلشَّيخِ وخُروجِهِ مِنْ عِنْدِهِ فيقولُ: «ثُمَّ زَوَّدني كُعيكاتٍ ودراهِمَ، وودَّعتُهُ وانْصَرَفْتُ».

وفي كَثيرٍ مِن الأَحيانِ، كانَ يَذكُرُ عَن الشُّعوبِ مُعْتَقداتِهِم الغَريبَةَ والعجيبَةَ في بَعضِ الأُمورِ والأَشياءِ، فكان يقولُ: «يَزعمونَ.. أَو على حَدِّ زَعمِهِمْ.. أَو يعتقدون..» وهكذا.

إِذاً كَانَ ابْنُ بَطوطَةَ راويَةً صادقاً وأَميناً في كُلِّ ما ذَكَره في رحلَتِهِ مِنْ هَذا القَبيلِ، ولم يَكُنْ يَدسُّ عَلَى الشُّعوبِ ما لَيسَ فيهِمْ. ولِهذا لقَّبهُ أَحَدُ المُسْتَشرقينَ بِالرَّحالَةِ الأَمينِ.

ونَظَراً لِلفوائِدِ التَّاريخيَّةِ والجُغرافيَّةِ العَميقَةِ بِما وَصَفَهُ ابْنُ بَطوطَةَ للبِلادِ وجوِّها وتُربَتِها وجبالِها وبِحارِها؛ اهْتمَّ المُسْتَشرقونَ في فَرنسا وإنكلترا وأَلمانيا والبُرتغالِ بِرحلَةِ ابْنِ بَطوطَةَ وترجموها إِلى لُغاتِهِمْ. ولَمْ يَحظَ كتابٌ مِنْ التُّراث الأَدبي والعرَبي والعالَمي بِهذا القَدرِ مِنَ الاهتمامِ، كَما حُظِيَ بِهِ كتابُ رحلَةِ ابْنِ بطوطَة الّتي كَتَبها ورواها ابْنُ الجَزيِّ.

تُوفيَ ابْنُ بَطوطَةَ في مَدينةِ مُرَّاكش في بِلادِ المغرب العربي، ودُفِنَ فيها سَنَةَ (779) هجريَّةً، ولا يَزال قبرهُ معروفاً فيها إِلى يومنا هَذا. . وقد أَطلق عليه المُسْتشرِقونَ الغَربيونَ في جمعيَّةِ (كمبردج) لَقَبَ: أَمير الرَّحالينَ المُسلمينَ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ لِماذا كانَ ابْنُ بَطوطَةَ أشهرَ الرَّحالين في تاريخِ الإنسانيَّةِ؟

2 ـ ماذا كانَ يَبْتغي ابْنُ بطوطَةَ مِنْ رحلتِهِ؟

3 ـ إلى ماذا أشارَ ابْنُ خلدونَ؟

4 ـ بِاختصارٍ، اذْكُرِ الأقطارَ التي زارَها ابْنُ بطوطة بِالتّرتيب؟

5 ـ ماذا حَوَتْ رحلَةُ ابْنِ بَطوطَةَ؟

6 ـ اذْكُرْ أَقسامَ رِحلَةِ ابْنِ بَطوطَةَ؟

7 ـ لِماذا كان ابْنُ بَطوطَة لا يتأَكَّدُ مِنْ صِحَّةِ ما يُروى لَهُ مِنْ حكاياتٍ؟

8 ـ لِماذا لُقِّبَ ابْنُ بَطوطَةَ بِالرَّحالَةِ الأَمينِ؟

المحتوى

قطْبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ إمامُ المُؤَرخِينَ 5
الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ شَيخُ الخطَّاطينَ 15
جَمالُ الدِّين القفطِيُّ القاضي الأَكرم 25
يَاقوتُ الحَمويُّ الرَّحالةُ الأَديبُ 35
تَقيُّ الدِّينِ المَقريزيُّ إمامُ المُؤَرخين 43
شمسُ الدِّينِ ابْنُ خُلكانَ القاضي المُؤَرِّخُ 53
أبو عَبْدِ اللَّهِ المقدسيُّ الرَّحالةُ الفقيهُ 63
وَليُّ الدِّينِ بْنُ خَلدونَ المُؤَرِّخُ الفَيلسوفُ 73
الشَّريفُ الإِدْريسيُّ رَائِدُ عِلمِ الجُغرافيا 83
ابْنُ بَطوطَةَ الطَّنْجيُّ رَحَّالَةُ الإِسلامِ 93
المحتوى 103